

للإمام ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي
(١١١٤ - ١١٧٦هـ)

نقله من الأصل الفارسي إلى اللغة العربية
ووضع عناوينه الجانبية

سلمان الحسيني الندوي

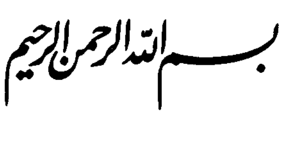
دار البشائر الإسلامية




الفوز الكبير
في
أصول التفسير

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م بالهند
الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ببيروت

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: ٥٩٥٥ـ١٤



تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن كتاب «الفوز الكبير في أصول التفسير» للإمام أحمد بن عبدالرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦)، الذي أقدم ترجمته العربية من الأصل الفارسي، كان مقرراً عندنا ولا يزال في السنة الثالثة من كلية الشريعة بدار العلوم ندوة العلماء كما كان كتابه الآخر «العقيدة الحسنة» مقرراً في مادة العقيدة في السنة الدراسية نفسها، وقد كان هذا مبدأ تعرفي على كتب الإمام الدهلوي. وكنت أسمع عنه من مشايخي وكبار علماء البلد وعلى رأسهم سماحة السيد أبي الحسن الندوي ما يملؤني إعجاباً به وإكباراً له، واعتقاداً فيه بأنه من نوابغ هذه البلاد بل عباقرتها الأفذاذ الذين قل أن يوجد لهم نظير حتى في العالم الإسلامي أيضاً.

فقرأت هذا الكتاب لأول مرة حينما كنت طالباً في السنة الثالثة من كلية الشريعة، عام ١٣٩٣ الموافق ١٩٧٣ م فيما قرأت من المقررات الدراسية قراءة طالب يقرأ أول كتاب في أصول التفسير، وأعجبتني تلك المعاني التي اشتمل عليها ولم يعجبني الأسلوب الذي عرضت فيه، وكنا نقرأ على غلاف الكتاب اسم المترجم للكتاب «الشيخ محمد منير الدمشقي» ولم نكن نعرف عنه إلا هذا الإسم، من هو؟ متى ترجم الكتاب؟ هل كان يعرف الفارسية أو استعان بأحد في الترجمة؟ وهل له شيء آخر غير ذلك يتعلق بالإمام الدهلوي؟ أسئلة كانت ترد على الذهن وتثور في النفس بدون جواب[1].

---

(١) سمعت من سماحة شيخنا الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله تعالى أن هذا الكتاب ترجمه أحد العلماء في الهند، ونسب إلى الشيخ محمد منير الدمشقي صاحب المطبعة المنيرية واشتهر به.

وأخيراً قرأنا في السنة الثانية من الدراسات العليا لكلية الشريعة عام ١٣٩٦ الموافق ١٩٧٦ م أبواباً مختارة من كتاب «حجة الله البالغة» الذي يُعد مأثرة الإمام الدهلوي العلمية الرائعة، كما بدأنا نقرأ عنه في كتابات العلماء الكبار ونزداد إعجاباً به وتأثراً بشخصيته الفريدة المحيطة بجوانب الشريعة الإسلامية فهماً وعلماً وتأليفاً في تناسق واتزان عجيب، إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على طبيعته المتزنة العادلة الحكيمة، وهو معروف بحكيم الإسلام وحق له هذا الوصف في حكمته ولباقته وحدة ذهنه وفراسته إلخ.

ومن ثم قررت أن يكون هو موضوعي في رسالة الماجستير (الدراسات العليا)، وكنت في قسم الحديث فوقع اختياري على كتابه «المصفى» شرح الموطأ (بالفارسية) ورأيت أنه فقيه مجتهد فيه أكثر من مجرد شارح للحديث، وكنت قرأت كتابيه «الإنصاف في أسباب الإختلاف» و«عِقْد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد» فتكونت لديّ فكرة واضحة عن فقهه وأصوله، ومنهجه الخاص في معالجة القضايا الفقهية والحديثية الذي يميل إلى الجمع والتوفيق بدلاً من التحيز والتفريق، واخترت عنوان الرسالة «آراء الإمام الدهلوي في أسباب الإختلاف وتاريخ التشريع الإسلامي» ليكون تمهيداً للكتابة عن فقهه وموقفه من المذاهب الأربعة، وقدَّمت الرسالة ثم لم يتيسر لي الاستمرار في هذا البحث.

وكنت أفكر - دائماً - في إبراز كتاباته وإخراجها إلى النور وترجمة بعض كتبه من الفارسية إلى العربية، لا سيما «المصفّى» شرح الموطأ، و«الفوز الكبير في أصول التفسير» وقد سمعت عدة مرات من سماحة شيخنا أبي الحسن الندوي حفظه الله تعالى: «أن الحاجة إلى ترجمته الصحيحة الدقيقة لا تزال قائمة».

وعهد إليّ بتدريس هذا الكتاب في العام الدراسي المنصرم في السنة الثالثة من كلية الشريعة للطلاب الوافدين من إفريقيا وماليزيا وأندونيسيا وغيرها، فرأيت - بوضوح أكثر - أن الترجمة قاصرة، وأن الأسلوب لا يساير العصر، وأن المترجم - جزاه الله تعالى خيراً - لم يستطع أن يفي بالغرض. ورغم أن الكتاب يشتمل على مباحث مهمة وكثير من النكات الدقيقة والمعاني الحقيقة بالنظر والتفكير إلا أنه لم تتجلّ أهميتها، ولم يعرف الكتاب في الأوساط العلمية والدراسية كما ينبغي، ومن الأسباب العاملة في ذلك أيضاً إيجازه الشديد، والإقتصار على إشارات وتلميحات في مواضع كثيرة تحتاج إلى بحوث موسعة، ونظرات دقيقة، وتعليقات مستفيضة.

وقد تأكد لدي أثناء ترجمة الكتاب أنه في حاجة إلى مقدمة مفصلة تشتمل على خلاصة العلوم القرآنية، والأصول التفسيرية التي لم يتعرض لها المؤلف، واستعراض شيء من تاريخ هذا العلم وجهود العلماء الماضين فيه، كما أنه لا بد من خدمته بتعليقات حافلة لا سيما وقد تعرض فيه المؤلف لبعض المباحث التي لا توجد في كتب علوم القرآن وأصول التفسير ـ بصفة عامة ـ كالبحث في انحرافات اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين، وأمراضهم الفكرية والإجتماعية والخلقية، والبحث في منهج الأنبياء في الدعوة والإصلاح، والبحث في أسلوب التوراة والأناجيل والتحريف فيها وعقيدة التثليث، وكذلك البحث في الأسلوب القرآني بطريقة فريدة خاصة، وغير ذلك من المباحث الكثيرة الدقيقة التي يحتاج كل مبحث منها إلى كتاب بمفرده.

وقد صحت عزيمتي على أن أترجم الكتاب وأقسمه في فقرات مناسبة، وأضع له العناوين الجانبية التي تكشف عن عشرات من الفوائد قد يمر بها القارىء ولا يلقي لها البال، ثم أعلق عليه بتعليقات مفصلة تبين مقاصد الكتاب أجلى بيان، واشتغلت بالترجمة فيسرها الله تعالى في مدة قريبة، ثم صرفتني أشغال أخرى عن التعليق، ولم يزل ذلك عالقاً بقلبي، فقررت أن أنشر الترجمة العربية العصرية للأصل الفارسي أولاً ليصل الكتاب ـ الذي هو الأصل ويدرس في جميع المدارس الإسلامية العالية في الهند ـ إلى أيدي الطلاب والدارسين، ثم أخرج الطبعة الثانية مع تعليقات مفصلة ومقدمة وافية إن شاء الله تعالى.

وأكتفي هنا بهذه الكلمة ونبذة من حياة الإمام الدهلوي في الصفحات التالية.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويوفقني لخدمة كتابه الحكيم وكل ما يمت إليه بصلة ونسب من علم أو كتاب أو عمل.

وأرجو أصحاب العلم والفضل لا سيما المعتنين بكتابات الإمام الدهلوي أن يرشدوني إلى الصواب إذا أخطأت، وينبهوني على الخطأ إذا غفلت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

غرة ذي القعدة من عام ١٤٠٤ هـ سلمان الحسيني الندوي



ترجمة المؤلف

الإمام ولي الله أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي

(١١١٤ - ١١٧٦ هـ)

اسمه ونسبه:

الشيخ الإمام الهمام، حجة الله بين الأنام، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علامة العلماء، وارثُ الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، المتضلعين بحمل أعباء الشرع المتين، محيي السنة، ومن عظمت به لله علينا المنة، شيخ الإسلام، قطب الدين أحمد بن عبدالرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي:

العالم الفاضل النحرير أفضل من   بثَّ العلومَ وأروى كل ظمآن

كان السلف من آبائه من حفدة السيد ناصر الدين الشهيد، وجده الشيخ وجيه الدين العمري الشهيد حفيد للسيد نور الجبار المشهدي، ونسبه يتصل بالإمام موسى الكاظم.

والده الشيخ عبدالرحيم:

وكان أبوه الشيخ عبدالرحيم من وجوه مشايخ دهلي ومن أعيانهم، له حظ وافر من العلوم الظاهرة والباطنة مع علوِّ كعبه في طريقة الصوفية.

ولادته:

ولد يوم الأربعاء ١٤ شوال عام ١١١٤ هـ في أيام السلطان عالمكير.

دراسته:

لما بلغ من عمره ما يندفع فيه الموفق من السعداء إلى طريق العلم وطلابه، وينسلك فيه بين نظام طلابه، أخذ العلم عن والده الشيخ عبدالرحيم المذكور وقرأ عليه الرسائل المختصرة بالفارسية والعربية.

وشرع في «شرح الكافية» للعارف الجامي وهو ابن عشر سنين، وقرأ «تفسير البيضاوي» وأجيز بالدرس وفرغ من التحصيل وهو في الخامس والعشرين من سنه.

وكان قرأ طرفاً من «المشكاة» و «صحيح البخاري» و «شمائل الترمذي» و «مدارك التنزيل».

ومن علم الفقه: «شرح الوقاية» و «الهداية» بتمامهما إلا طرفاً يسيراً.

ومن أصول الفقه: «الحسامي» وطرفاً صالحاً من «التوضيح» و «التلويح».

ومن المنطق: «شرح الشمسية» وقسطاً من «شرح المطالع».

ومن الكلام: «شرح العقائد» وجملة من «الخيالي» و «شرح المواقف».

ومن التصوف: قطعة من «العوارف».

ومن الطب: «موجز القانون».

ومن الحكمة: «شرح هداية الحكمة».

ومن المعاني: «المختصر» و«المطول».

وبعض الرسائل في الهيئة والحساب، إلى غير ذلك، وكلها على أبيه.

وكان يختلف في أثناء الدرس إلى إمام الحديث في زمانه الشيخ محمد أفضل السيالكوتي فانتفع به في الحديث.

زواجه وبيعته في السلوك:

وتزوج وهو ابن أربع عشرة سنة، وبايع والده واشتغل عليه بأشغال المشايخ النقشبندية، وقد كانت أسرة والدته وأسرة زوجته أيضاً من الأسر الفاضلة التي نبغ فيها علماء ومشايخ صالحون.

تدريسه ونبوغه وتبحره:

واشتغل بالتدريس نحواً من اثنتي عشرة سنة وحصل له الفتح العظيم في التوحيد والجانب الواسع في السلوك، وخاض في بحار المذاهب الأربعة وأصول فقههم خوضاً بليغاً، ونظر في الأحاديث التي هي متمسكاتهم في الأحكام، وارتضى من بينها طريق الفقهاء المحدثين.

زيارته للحرمين الشريفين:

واشتقاق إلى زيارة الحرمين الشريفين فرحل إليها سنة ١١٤٣ هـ ومعه خاله الشيخ عبيدالله البارهوي وابن خاله الشيخ محمد عاشق وغيرهما من أصحابه.

إقامته بالحرمين الشريفين
واستفادته من مشايخها:

وأقام بالحرمين الشريفين عامين كاملين، وصحب علماء الحرمين صحبة شريفة، وتلمذ على الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني (١١٤٥ هـ) في المدينة المنورة، فتلقى منه جميع «صحيح البخاري» ما بين قراءة وسماع، وشيئاً من «صحيح مسلم» و «جامع الترمذي» و «سنن أبي داود» و «سنن ابن ماجه» و «موطأ الإمام مالك» و «مسند الإمام أحمد» و «الرسالة» للشافعي و «الجامع الكبير» وسمع منه «مسند الحافظ الدارمي» من أوله إلى آخره في عشرة مجالس كلها بالمسجد النبوي عند المحراب العثماني تجاه القبر الشريف، وشيئاً من «الأدب المفرد» للبخاري وشيئاً من أول «الشفاء» للقاضي عياض، وسمع عليه «الأمم» فهرس الشيخ إبراهيم بن الحسن الكردي المدني مع التذييل، فأجازه الشيخ أبو طاهر إجازة عامة بما تجوز له وعنه روايته من مقروء ومسموع وأصول وفروع وحديث وقديم، ومحفوظ ورقيم وذلك في سنة ١١٤٤ هـ.

ثم ورد بمكة المباركة وأخذ موطأ مالك عن الشيخ وفد الله المالكي المكي، وحضر دروس الشيخ تاج الدين القلعي الحنفي المكي أياماً حين كان يدرس صحيح البخاري، وسمع عليه «أطراف الكتب الستة» و «موطأ مالك» و «مسند الدارمي» و «كتاب الآثار» لمحمد، وأخذ الإجازة عنه لسائر الكتب، وأخذ عنه الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ إبراهيم بن الحسن المدني وهو أول حديث سمع منه بعد عودته من زيارة قبر النبي ﷺ وعاد إلى الهند سنة ١١٤٥ هـ.

جمعه بين العلوم والفضائل:

وقد امتاز الإمام الدهلوي بالفصاحة في اللغة العربية وامتلاك ناصية البيان نثراً وشعراً، والغوص في الفقه على المذاهب الأربعة والإطلاع على مآخذ المسائل ومنازع الحجج والدلائل، والتوسع في علم الحديث مع حفظ المتون وضبط الأسانيد والنظر في دواوين المجاميع والمسانيد، ولم يتفق لأحد قبله ممن كان يعتني بهذا العلم من أهل قطره ما اتفق له من رواية الأثر وإشاعته في الأكناف البعيدة، والتبحر في علوم القرآن، كما أنه هذب أصول هذه العلوم ومبادئها تهذيباً بليغاً وأكثر من التصرف فيها حتى يكاد يصح أن

يقال إنه باني أسها وباري قوسها، فكتابه «الفوز الكبير في أصول التفسير» شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها والحق إنه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه.

وأما أصول الحديث فله فيها باع رحيب وقد أشار ابنه الشيخ عبدالعزيز أن له فيها تحقيقات مستظرفة لم يُسبق إليها، وأما أصول الفقه فإنه شرح أصول المذاهب المختلفة وجمعها وبيّن الفرق بين الأمور الجدلية والأصول الفقهية، وردَّ وجوه الإستنباط على كثرتها إلى عشرة، وأسس قواعد الجمع بين مختلف الأدلة وبين قوانين الترجيح.

وأما علم العقائد وأصول الدين فإنه أتى فيه بأسرار غامضة في التطبيق بالمأثور مما لا يهتدى إليها في الأعصار إلا واحد بعد واحد ممن يجتبيه الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن المتكلم في هذا العلم إما أن يكون صاحب حديث يتهافت على ظواهره أو صاحب كلام يتعمق في الرأي أو صاحب فقه يتوسط الفريقين أو صاحب ذوق يطمئن إلى ما يتجلى له، وقد جمع الله تعالى في صدره ما شتته بين هؤلآء.

وكذلك كثير من العلوم والفنون والحقائق فضل فيها أهل عصره وكثيراً ممن تقدمه أو تأخر عنه.

وليس على الله بمستنكر　　　أن يجمع العالم في واحد

ثناء العلماء الأجلة عليه:

قال عنه شيخه أبو طاهر محمد بن إبراهيم المدني: «إنه كان يسند عني اللفظ وكنت أصحح منه المعنى» أو كلمة تشبه ذلك، وكتبها فيما كتب له، وهذا يقرب من قول البخاري في أبي عيسى الترمذي حين قال له: «ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي»، وليس وراءه مفخرة ترام ولا فوقها منقبة تتمنى.

شرف ينطح النجوم بروقيه　　　وعز يقلقل الأجبالا

وذكر الشيخ غلام علي الدهلوي في «المقامات» أن شيخه ميرزا جان جانان العلوي الدهلوي كان يقول: «إن الشيخ ولي الله قد بيّن طريقة جديدة، وله أسلوب خاص في تحقيق أسرار المعارف وغوامض العلوم، وإنه رباني من العلماء ولعله لم يوجد مثله في الصوفية المحققين الذين جمعوا بين علميْ الظاهر والباطن، وتكلموا بعلوم جديدة إلا رجالاً معدودين».

ولما اطلع العلامة الشيخ فضل حق الخير آبادي على كتابه «إزالة الخفاء» أولع به، وكان يكثر النظر فيه ويقول: «إن الذي صنف هذا الكتاب لبحر زخّار لا يُرى له ساحل».

هذا وليس يقع فيه إلا جاهل غبي من الجهال لا يرجى أن يستطب ما به من دائه العضال، أو حاسد يحسده على ما أكرمه الله تعالى من علية الخصال وجلية سجايا الشرف والكمال.

حسدوك إذ رأوك آثرك الله بما قد فضلت النجباء

وقال المفتي عناية أحمد الكاكوروى: «إن الشيخ ولي الله مثله كمثل شجرة طوبى، أصلها في بيته وفرعها في كل بيت من بيوت المسلمين فما من بيت ولا مكان من بيوت المسلمين وأمكنتهم إلا وفيه فرع من تلك الشجرة لا يعرف غالب الناس أين أصلها».

وقال السيد صديق حسن القنوجي في «الحطة بذكر الصحاح الستة»، في ذكر من جاء بعلم الحديث في الهند: «ثم جاء الله سبحانه وتعالى من بعدهم بالشيخ الأجل والمحدث الأكمل ناطق هذه الدورة وحكيمها وفائق تلك الطبقة وزعيمها الشيخ ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) وكذا بأولاده الأمجاد وأولاد أولاده أولي الإرشاد، المشمرين لهذا العلم عن ساق الجد والإجتهاد، فعاد لهم علم الحديث غضاً طرياً بعد ما كان شيئاً فرياً، وقد نفع الله بهم وبعلومهم كثيراً من عباده المؤمنين ونفى بسعيهم المشكور من فتن الإشراك والبدع ومحدثات الأمور في الدين ما ليس بخافٍ على أحد من العالمين، فهؤلآء الكرام قد رجحوا علم السنة على غيرها من العلوم، وجعلوا الفقه كالتابع له والمحكوم، وجاء تحديثهم حيث يرتضيه أهل الرواية ويبغيه أصحاب الدراية، شهدت بذلك كتبهم وفتاواهم ونطقت به زبرهم ووصاياهم، ومن يرتاب في ذلك فيرجع إلى ما هنالك، فعلى الهند وأهلها شكرهم ما دامت الهند وأهلها».

من زار بابك لم تبرح جوارحه تروي أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

مصنفاته الجليلة:

أما مصنفاته فكثيرة، وهي كلها تدل على سعة نظره وغزارة علمه وبعد غوره وغوصه في الحقائق والمعاني الدقيقة، ونذكر فيما يلي ما عرف واشتهر من مصنفاته مرتبة حسب المواضيع:

مصنفاته في علوم القرآن:

١ - فتح الرحمن في ترجمة القرآن (بالفارسية): وهي على شاكلة النظم العربي في قدر الكلام وخصوص اللفظ وعمومه وغير ذلك.

٢ - الزهراوين: في تفسير سورتي البقرة وآل عمران.

٣ ـ الفوز الكبير في أصول التفسير: ذكر فيه العلوم الخمسة القرآنية وتأويل الحروف المقطعات وحقائق أخرى.

٤ ـ تأويل الأحاديث: رسالة نفيسة له بالعربية في تأويل قصص الأنبياء عليهم السلام وبيان مباديها التي نشأت من استعداد النبي وقابلية قومه ومن التدبير الذي دبرته الحكمة الإلهية في زمانه.

٥ ـ الفتح الخبير: وهو كذلك الفصل الخامس من «الفوز الكبير» اقتصر فيه على غريب القرآن وتفسيره مما روى عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

٦ ـ قوانين الترجمة: رسالة نفيسة بالفارسية في قواعد ترجمة القرآن وحل مشاكلها.

مصنفاته في الحديث الشريف وعلومه:

١ ـ المصفّى شرح الموطأ: برواية يحيى بن يحيى مع الليثي. حذف أقوال الإمام وبعض بلاغياته، وتكلم فيه ككلام المجتهدين.

٢ ـ المسوّى شرح الموطأ: وهو بالعربية وقد اكتفى فيه بذكر اختلاف المذاهب وبقدر يسير من شرح الغريب.

٣ ـ شرح تراجم أبواب البخاري: أتى فيه بتحقيقات عجيبة وتدقيقات غريبة.

٤ ـ النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر.

٥ ـ الأربعين: جمع فيه أربعين حديثاً قليلة المباني كثيرة المعاني، رواها عن شيخه أبي طاهر بسنده المتصل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٦ ـ الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين.

٧ ـ الإرشاد إلى مهمات الإسناد.

٨ ـ رسالة بسيطة في الأسانيد بالفارسية مشتملة على تحقيقات غريبة وتدقيقات عجيبة.

مصنفاته في أصول الدين
وأسرار الشريعة وحكمها:

١ ـ حجة الله البالغة: في علم أسرار الشريعة وحكمها، ولم يتكلم في هذا العلم أحد قبله على هذا الوجه من تأصيل الأصول وتفريع الفروع وتمهيد المقدمات والمبادىء واستنتاج المقاصد.

٢ ـ إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (بالفارسية): كتاب عديم النظير في بابه لم يؤلف مثله قبله ولا بعده يدل على أن صاحبه لبحر زخار لا يرى له ساحل.

٣ ـ قرة العينين في تفضيل الشيخين (بالفارسية).

٤ ـ حسن العقيدة: رسالة مختصرة له في العقائد بالعربية.

٥ ـ الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف: ذكر فيه أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمجتهدين وأصحاب الحديث وأصحاب الرأي وغيرهم.
٦ ـ عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد.
٧ ـ البدور البازغة: في الكلام وجاءت فيها مثل مواضيع «حجة الله البالغة».
٨ ـ المقدمة السنية في انتصار الفرقة السنية.

مصنفاته في علم الحقائق والسلوك:

١ ـ المكتوب المدني: الذي أرسله إلى إسماعيل بن عبدالله الرومي في حقائق التوحيد.
٢ ـ ألطاف القدس في بيان لطائف النفس.
٣ ـ القول الجميل في بيان سواء السبيل: في سلوك الطرق الثلاثة المشهورة القادرية والجشتية والنقشبندية.
٤ ـ الانتباه في سلاسل أولياء الله: كتاب مبسوط في شرح السلاسل المشهورة وغير المشهورة.
٥ ـ همعات: رسالة نفيسة بالفارسية يحق أن تكتب بمداد النور على خدود الحور، وهي في بيان طريق الوصول إلى الله تعالى.
٦ ـ لمعات.
٧ ـ سطعات.
٨ ـ هوامع: في شرح «حزب البحر» على لسان الحقائق والمعارف.
٩ ـ شفاء القلوب: في الحقائق والسلوك.
١٠ ـ الخير الكثير.
١١ ـ التفهيمات الإلهية: وهي مذكرته التي سجل فيها خواطره وآراءه وأفكاره.
١٢ ـ فيوض الحرمين: مجموعة أحواله أثناء إقامته بالحرمين الشريفين.

مصنفاته في السير والأدب:

١ ـ سرور المحزون (بالفارسية): ملخص من «نور العيون» في تلخيص «سيرة الأمين المأمون» لابن سيد الناس، صنفه الشيخ الكبير جان جانان العلوي الدهلوي.
٢ ـ أنفاس العارفين: رسالة بسيطة تشتمل على تراجم أبائه والكبار من أسرته وعلى سيرهم وبعض وقائعهم وأذواقهم ومعارفهم.
٣ ـ إنسان العين في مشايخ الحرمين.
٤ ـ أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم: هي مجموعة مدائحه النبوية، على ممدوحها ألف ألف صلاة وتحية.

٥ ـ رسالة في شرح رباعياته بالفارسية.

٦ ـ ديوان الشعر العربي: جمعه ولده الشيخ عبدالعزيز ورتبه الشيخ رفيع الدين.

نموذج من شعره:

وأما شعره بالعربي فكأنما الإعجاز أو السحر في رقة اللفظ ومعناه وصفاء المورد ومعناه، يقول:

كأن نجوماً أومضت في الغياهب ... عيون الأفاعي أو رؤوس العقارب

إذا كان قلب المرء في الأمر خاثراً ... فأضيق من تسعين رحب السياسب

وتشغلني عني وعن كل راحتي ... مصائب تقفو مثلها في المصائب

إذا ما أتتني أزمة مُدلهِمَّة ... تحيط بنفسي من جميع جوانب

تطلبتُ هل من ناصرٍ أو مساعد ... ألوذُ به من خوف سوء العواقب

فلستُ أرى إلا الحبيب محمداً ... رسول إله الخلق جم المناقب

فمن شاء فليذكر جمال بثينة ... ومن شاء فليغزل بحب الربائب

سأذكر حبي للحبيب محمد ... إذا وصف العشاق حب الحبائب

أذكر وجداً قد تقادم عهده ... حواه فؤادي قبل كون الكواكب

ويبدو محياه لعيني في الكرى ... بنفسي أفديه إذن والأقارب

وليس ملوماً على صب أصابه ... غليل الهوى في الأكرمين الأطايب

وفاته:

توفي الإمام الدهلوي إلى رحمة الله تعالى ظهيرة يوم السبت سلخ شهر الله الحرام سنة ١١٧٦ هـ بمدينة دهلي، فدفن عند والده خارج البلدة وله ٦٢ سنة[1].

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عنا وعن جميع المسلمين خير ما يجزي به عباده الصالحين، وصلى الله على نبيه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ملخص من نزهة الخواطر ٣٩٨/٦ ـ ٤١٥.

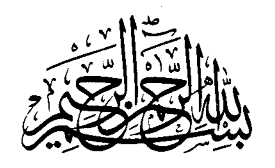


الفوز الكبير في أصول التفسير

للإمام وليّ الله أحمد بن عبد الرّحيم الدّهلوي
(١١١٤ - ١١٧٦هـ)

نقله من الأصل الفارسي إلى اللغة العربيّة
ووضع عناوينه الجانبية

سلمان الحسيني النّدوي



مقدمة الكتاب

إن آلاء الله تعالى ونعمه على عبده الضعيف كثيرة لا تحصى، وأجل هذه النعم توفيقه إياي لفهم كتابه الحكيم، وإن منن سيدنا رسول الله ﷺ على أصغر أفراد أمته منزلةً عظيمةٌ وفيرة، وأعظمها تبليغه ﷺ لكتاب ربه عز وجل. لقد تلقى الجيل الأول منه ﷺ القرآن الكريم، وتلقى الجيل الثاني من الجيل الأول وهكذا دواليك حتى وصل إلى هذا العبد الضعيف فنال حظه من تلاوته وفهمه وتدبره.

اللهم صل على هذا النبي الكريم، سيدنا ومولانا وشفيعنا أفضل صلواتك وأيمن بركاتك وعلى آله وأصحابه، وعلماء أمته أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد، يقول الفقير إلى الله، ولي الله بن عبدالرحيم عاملـهما الله تعالى بلطفه العظيم: إنه لما فتح الله تعالى عليّ باباً من كتابه الحكيم، خطر لي أن أقيد الفوائد النافعة التي تنفع إخواني في تدبر كلام الله عز وجل، وأرجو أن مجرد فهم هذه القواعد يفتح للطلاب طريقاً واسعاً إلى فهم معاني كتاب الله تعالى، وأنهم لو قضوا أعمارهم في مطالعة كتب التفسير أو قراءتها على المفسرين، على أنهم أقل قليل في هذا الزمان، لا يظفرون بهذه القواعد والأصول بهذا الضبط والتناسق.

وسميتها بـ «**الفوز الكبير في أصول التفسير**»، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وقد جمعت مقاصد هذه الرسالة في خمسة أبواب، وهي كما يلي:

الباب الأول: في العلوم الخمسة التي يدل عليها القرآن الكريم نصاً، حتى وكأن القرآن نزل بالأصالة لهذه العلوم الخمسة.

الباب الثاني: في وجوه خفاء نظم القرآن بالنسبة إلى أفهام أهل هـذا العصر، وتجليتها بأوضح بيان.

الباب الثالث: في بيان لطائف نظم القرآن، والأسلوب القرآني البديع.

الباب الرابع: في مناهج التفسير، وبيان أسباب الاختـلاف ووجوهـه في تفسير الصحابة والتابعين.

الباب الخامس: في بيان غريب القرآن، وأسباب النزول التي لا بد من حفظها للمفسر، ويحظر بدونها الخوض في التفسير.

الباب الأول

في العلوم الخمسة الأساسية
التي يشتمل عليها القرآن

ليعلم أن المعاني التي يشتمل عليها القرآن لا تخرج عن خمسة علوم:

١ - **علم الأحكام**: كالواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، سواء كانت من قسم العبادات أو المعاملات، أو الاجتماع أو السياسة المدنية.

ويرجع تفصيل هذا العلم وشرحه إلى الفقيه.

٢ - **علم الجدل**: وهي المحاجة مع الفرق الأربع الباطلة: اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين.

ويرجع شرح هذا العلم وتفريعه إلى المتكلم.

٣ - **علم التذكير بآلاء الله**: كبيان خلق السموات والأرض وإلهام العباد ما يحتاجون إليه، وبيان الصفات الإلهية.

٤ - **علم التذكير بأيام الله**: وهو بيان تلك الوقائع والحوادث التي أحدثها الله تعالى إنعاماً على المطيعين ونَكالاً للمجرمين، كقصص الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات ومواقف شعوبهم وأقوامهم معهم.

٥ - **علم التذكير بالموت وما بعد الموت**: كالحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار.

ويرجع تفصيل هذه العلوم وبيانها وذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بها إلى الواعظ والمذكر.

أسلوب القرآن الكريم في عرض العلوم القرآنية:

وقد جاءت هذه العلوم في القرآن الكريم على طريقة العرب الأولين، لا على منهج العلماء المتأخرين فلم يلتزم في آيات الأحكام منه طريق الإيجاز والاختصار كمؤلِّفي المتون الفقهية، ولا طريق تنقيح الحدود والقيود، كما يفعله الأصوليون.

وقد التزم في آيات الجدل والمخاصمة إيراد الأدلة المشهورة المسلَّمة والبراهين الخطابية، لا تنقيح البراهين وتقسيمها على طريقة المنطقيين.

ولم يُراع في الانتقال من مقصد إلى آخر ومن موضوع إلى موضوع آخر تلك المناسبة التي يراعيها الأدباء المتأخرون، بل ألقى على عباده ما رآه مهماً، سواء كان مقدماً أو مؤخراً.

حقيقة أسباب النزول:

وقد ربط عامة المفسرين كل آية من آيات الأحكام وآيات المخاصمة بقصة تُروى في سبب نزوله، وظنوا أنها هي سبب النزول. والحق أن نزول القرآن الكريم إنما كان لتهذيب النفوس الإنسانية، وإزالة العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة.

فالسبب الحقيقي ـ إذن ـ في نزول آيات المخاصمة هو وجود العقائد الباطلة في نفوس المخاطَبين. وسبب نزول آيات الأحكام إنما هو شيوع المظالم ووجود الأعمال الفاسدة فيهم. وسبب نزول آيات التذكير ـ بآلاء الله وأيامه وبالموت ـ إنما هو عدم تيقّظهم وتنبّهم بما يَرْون ويمرُّون عليه من آلاء الله وأيامه، وحوادث الموت وما سيكون بعده من وقائع هائلة.

أما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التي تجشّم بيانها المفسرون فليس لها دخل في ذلك إلا في بعض الآيات الكريمة التي تشتمل على تعريض بحادث من الحوادث في عهد النبي ﷺ أو قبله، بحيث يقع القارىء بعد هذا التعريض في ترقب

وانتظار لما كان وراءه من قصة أو حادث أو سبب، ولا يُزال ترقبه إلا ببسط القصة وبيان سبب النزول.

لأجل ذلك يلزمنا أن نشرح هذه العلوم بطريقة لا نحتاج معها إلى إيراد قصص جزئية[1].

(١) لم يتعرض المؤلف لفصل «علم آيات الأحكام» فله كتب باسم أصول الفقه وبدأ الفصل الأول بعلم المخاصمة.

الفصل الأول

في علم الجدل

لقد وقع الجدل في القرآن الكريم مع الفـرق الأربع البـاطلة: المشركـين واليهود والنصارى والمنافقين.

طريقان للجدل

في القرآن الكريم:

وكان هذا الجدل والاحتجاج على طريقين:

الأول: أن تُذكر العقيدة الباطلة ويُنص على شناعتها وفسادها واستنكارها فحسب.

الثاني: أن تُحدد الشبهات التي وقع فيها هؤلآء الفرق، ثم تُعرض حلولها وأجوبتها بالأدلة البرهانية أو الخطابية.

مفهوم الحنيف:

وقد كان المشركون يسمون أنفسهم «حنفاء»، ويدَّعون التدين بملة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

والحنيف هو من ينتمي إلى إبراهيم عليـه السلام ويتـدين بملته، ويلتـزم شعائره.

شعائر الملة الإبراهيمية:

وإن شعـائر الملة الإبـراهيمية هي: حـج بيت الله الحرام، واستقبـاله في الصلوات، والغسل من الجنابـة، والاختتان، وسـائر خصـال الفطرة، وتحـريم الأشهر الحرم، وتعظيم المسجد الحرام، وتحريم المحرمات النَّسَبية والرضـاعية،

والذبح في الحَلْق، والنحر في اللَّبّة، والتقرب بالذبح والنحر إلى الله تعالى لا سيما في أيام الحج.

بعض شرائع الملة الإبراهيمية:

وقد كان الوضوء، والصلاة، والصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والصدقة على اليتامى والمساكين، والإعانة على نوائب الحق، وصلة الأرحام، أموراً مشروعة في أصل ملة إبراهيم عليه السلام وكانوا يتمادحون بهذه الأعمال ويرونها فضيلة ومفخرة، إلا أن جمهور المشركين تركوها وانصرفوا عنها، وأصبحت عندهم هذه الأمور والشعائر كأن لم تكن شيئاً.

وكان تحريم القتل والسرقة والزنا والربا والغصب ثابتاً معلوماً في أصل الملة الحنيفية، ويجري استنكارها عندهم في الجملة، ولكن جمهور المشركين كانوا يرتكبونها وينساقون وراءها بحكم النفس الأمّارة بالسوء.

العقائد الثابتة لدى المشركين
وانحرافهم عنها:

وكانت عقيدة إثبات وجود الله تعالى وأنه خالق الأرض والسمٰوات العلى، وأنه مدبر الحوادث العظام، وأنه قادر على إرسال الرسل، ومجازٍ للعباد على أعمالهم، وأنه قادر مقدر للحوادث العظيمة قبل وقوعها، وأن الملائكة عباد الله المقربون، وأنهم يستحقون الإكرام، كل ذلك كان ثابتاً عندهم، ويدل على ذلك شعرهم. ولكن جمهور المشركين وقعوا في شبهات كثيرة تجاه هذه المعتقدات، لاستبعاد بعض الأمور، وعدم ألفتهم لإدراكها والإحاطة بمفاهيمها.

وقد كان ضلال هؤلاء وانحرافهم: في الشرك والتشبيه والتحريف، وجحود الآخرة، واستبعاد رسالة سيد المرسلين ﷺ، وشيوع الأعمال القبيحة والمظالم فيما بينهم، وابتداع الطقوس والتقاليد الباطلة، واندراس العبادات والشعائر الحقة الصحيحة.

حقيقة الشرك ومظاهره وأنواعه:

والشرك هو إثبات الصفات الخاصة بالله تعالى لغيره، مثل إثبات التصرف

المطلق في الكون بالإرادة المطلقة التي يُعبر عنها «بكن فيكون»، أو إثبات العلم الذاتي الذي لا يحصل بالاكتساب عن طريق الحواس والدليل العقلي والمنام والإلهام وأمثال هذه من الوسائل المادية أو الروحية، أو إثبات إيجاد شفاء المريض أو إثبات اللعنة على شخص أو السخط عليه بحيث ينقلب نتيجة هذا اللعن والسخط مُعْدَماً أو مريضاً أو شقياً، أو الرحمة لشخص والرضا عنه بحيث ينقلب هو بسبب هذه الرحمة والرضا غنياً صحيحاً معافىً سعيداً.

وهؤلاء المشركون لا يعرفون مع الله تعالى شريكاً، في خلق الجواهر - أي أصول المادة - وتدبير الأمور العظام، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم الله تعالى شيئاً وقضى به أن يمانعه ويقف دونه. إنما إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد، إذ أنهم يظنون أن سلطاناً عظيماً من السلاطين العظام، كما يرسل عبيده وأصحاب الزلفى لديه إلى بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية، ويجعلهم متصرفين فيها - إلى أن يصدر عنه قرار آخر - باختيارهم وسلطتهم، وأنه لا يقوم بشؤون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يكل ذلك إلى الولاة والحكام، ويقبل منهم شفاعتهم وتزكيتهم للموظفين الذين يعملون تحت إشرافهم، والمتصلين بهم، والمتزلفين لديهم. كذلك قد خلع ملك الملوك على الإطلاق - تعالى شأنه - على بعض عباده المقرَّبين خِلْعة الألوهية، وجعل سخطهم ورضاهم مؤثراً في عباده الآخرين.

فكانوا - لأجل ذلك - يرون من الضرورة التزلف إلى أولئك العباد المقرَّبين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقي، وتَنال شفاعتُهم - في حقهم - عند الجزاء على الأعمال والحساب الحُظْوة والقَبولَ لديه سبحانه.

ونظراً لهذه الملاحظة والتصور الذي رسخ في نفوسهم حدثتهم أنفسهم بالسجود أمامهم والذبح لهم، والحَلف بأسمائهم والاستعانة بقدرتهم المطلقة، ونحت صورهم وتماثيلهم من الحجر والصُفْر والنحاس وغير ذلك، وجعلها قِبلة للتوجه إلى أرواحهم، وتَدَرَّج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدأوا يعبدون هذه

الصور والتماثيل ويعتقدون أنها آلهة بذاتها، ووقع في المعتقدات خلط والتباس وفساد عظيم.

معنى التشبيه وصوره:

والتشبيه عبارة عن إثبات الصفات البشرية ـ أو أي صفة من صفات المخلوقين ـ لله تعالى. فكانوا يقولون مثلاً: إن الملائكة بنات الله، وأن الله يقبل شفاعة عباده ولو لم يرض بها، كما يفعل الملوك أحياناً مع الأمراء الكبار وحكام الولايات. وإنهم ـ لما لم يستطيعوا إدراك السمع والبصر حسبما يليق بشأن الألوهية ـ قاسوهما على أسماعهم وأبصارهم، ووقعوا في التجسيم ونسبة التحيز إلى الله سبحانه.

منشأ التحريف ومظاهره:

أما التحريف فإن قصته هي أن أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام كانوا على شريعة جدهم إبراهيم عليه السلام، حتى وُجد فيهم عمرو بن لُحَيّ ـ لعنه الله ـ ووضع لهم الأصنام وشرع لهم عبادتها، واخترع طقوس البَحيرة والسائبة والحام، والإستقسام بالأزلام وأمثال هذه من الطقوس والبدع ،وقد كان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ بقرابة ثلاثمائة سنة. وكان هؤلاء الجهلة يستدلون بآثار آبائهم، ويرَوْنها عندهم حجة قاطعة.

وأما أحوال البعث والحشر والنشر فإن الأنبياء السابقين وإن تعرضوا لبيانها فإنهم لم يبينوها أو لم تتضمن صحفهم بيانها بذلك التفصيل والإسهاب الذي نجده في القرآن الكريم، ولذلك كان المشركون قليلي الإطلاع على تفاصيلها، ويستبعدون وقوعها.

وكانوا بالرغم من اعترافهم بنبوة جدهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ونبوة سيدنا إسماعيل عليه السلام حتى بنبوة سيدنا موسى عليه السلام أيضاً، تحول الصفات البشرية ـ التي يتسم بها الأنبياء ـ بينهم وبين رؤية جمالهم الحقيقي وتحجبهم ـ لجهلهم وقلة إدراكهم ـ عن الإطلاع على مكانتهم الحقيقية. وكانوا لعدم تفطنهم وإدراكهم لحقيقة التدبير الإلهي والحكمة الإلهية التي تقتضي بعثة

الأنبياء والمرسلين، يستبعدون رسالة الرسل لاعتقادهم أن الرسول ينبغي أن يكون مثل المرسل وأن يكون بينهما إشتراك في الصفات، ويوردون لأجل ذلك شبهات واهية ركيكة، فيقولون مثلاً:

- كيف يكون النبي محتاجاً إلى الطعام والشراب؟.

- ولماذا لم يرسل الله مَلَكاً رسولاً؟.

- وما هو الغرض في أنه لا يُوحى إلى كل شخص على حدته؟ وهلم جراً...

وإذا كنت - أيها القارىء تتوقف في التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم، فانظر إلى المحرّفين المخرفين في هذا العصر، لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام، ما هي تصوراتهم عن «الولاية»، فرغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين، يرون وجود الأولياء في عصرنا هذا من المستحيلات، ويؤمّون القبور والعتبات، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبدع والخرافات، وتمكن منهم التحريف والتشبيه، وتغلغل في نفوسهم حتى لم تبق بحكم ما جاء في الحديث الصحيح: «لتتبَّعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم... إلخ» بلية من البلايا، ولا فتنة من الفتن إلا وطائفة من طوائف المسلمين - اسماً - تخوض فيها وتعلق بها، عافانا الله سبحانه عن ذلك.

وبالجملة فإن رحمة الله تعالى اقتضت بعثة سيد الأنبياء محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه في الجزيرة العربية، وأمره بإقامة الملة الحنيفية، ومجادلة هؤلاء الفرق الباطلة عن طريق القرآن العظيم، وقد كان الإستدلال في مجادلتهم بالمسلَّمات التي هي من بقايا الملة الإبراهيمية، ليتحقق الإلزام ويقع الإفحام.

الجدل القرآني مع المشركين

لقد رد الله تعالى على المشركين ومعتقداتهم الباطلة بشتى الطرق، وبيانها كما يلي:

أولاً: مطالبتهم بالدليل على ما يزعمون، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم.

ثانياً: إثبات أنه لا تساوي بين الرب والعباد وأن الرب تعالى مختص باستحقاق أقصى غاية التعظيم بخلاف جميع عباده وجميع مخلوقاته.

ثالثاً: بيان إجماع الأنبياء والمرسلين على هذه الحقيقة الكبرى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

رابعاً: بيان شناعة عبادة الأصنام، وأن الأحجار ساقطة عن مرتبة الكمال الإنساني فكيف تظل بمرتبة الألوهية، يُسجد لها ويُتوجه إليها!.

ومثل هذا الردوالتفنيد لأولئك المشركين الذين كانوا يعتقدون هذه الأصنام آلهة معبودة لذاتها.

الرد على التشبيه:

وكان الرد على التشبيه بعدة طرق:

أولاً: بمطالبتهم بالدليل على دعواهم، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم.

ثانياً: ببيان ضرورة التجانس بين الوالد والولد، ـ للرد على عقيدة الْأبنِيَّة ـ وظاهر أنه مفقود، بادٍ ذلك لِلعيَان.

ثالثاً: بيان شناعة نسبة ما هو مكروه ومذموم لديهم كما تدل على ذلك مواقفهم إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾.

وقد سبق هنا الرد لقوم اعتادوا المقدمات المشهورة والمتوهمات الشعرية وكان أكثرهم من هذا القبيل.

الرد على التحريف:

وكان الرد على التحريف بإثبات أمرين:

١ ـ أنه لم يؤثر عن أئمة الملة الحنيفية ـ إبراهيم وإسماعيل وغيرهما من الأنبياء الماضين ـ ما يقولون من تحريفات.

٢ ـ أنه من اختراعات من ليسوا بمعصومين وابتداعاتهم.

الرد على استبعاد القيامة:

وكان الرد على استبعاد البعث والحشر والنشر بوجوه عديدة:

١ ـ بالقياس على إحياء الأرض بعد موتها، وأمثال ذلك.

٢ ـ بتنقيح المناط، وهو عبارة ـ هنا ـ عن بيان شمول القدرة الإلهية، وإمكان الإعادة بعد البدء بل يسرها وسهولتها.

٣ ـ ببيان موافقة أهل الكتب السماوية كلهم في الإخبار بالقيامة، واعتقادها.

الرد على منكري الرسالة:

وكان الرد على المنكرين للرسالة والمستبعدين لها بالوجوه التالية:

١ ـ وقوع الرسالة وتحققها للأنبياء الماضين. ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾. ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً، قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾.

٢ ـ الرد على استبعاد الرسالة واستغرابها بأنها ـ هنا ـ عبارة عن الوحي الإلهي، الذي يتلقاه رجل من البشر باصطفاء الله إياه. ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾. وتفسير الوحي بما لا يكون من المستحيلات. ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسلَ رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾.

٣ ـ بيان أن عدم ظهور المعجزات التي يقترحونها على الرسول، وعدم موافقة الله إياهم في تعيين شخص يتوخّون رسالته، وعدم إرساله ـ تعالى شأنه ـ الملائكة رسلاً بين الناس، وعدم إيحائه إلى كل شخص من الأشخاص، كل ذلك ينبنى على المصالح الكلية التي يقصر علمهم عن إدراكها وتعجز عقولهم عن الإحاطة بمراميها.

وبما أن أكثر الناس الذين بعث إليهم الرسول ﷺ كانوا مشركين، لذلك فإن هذه المعاني قد تكررت في القرآن الكريم بأساليب متعددة وفي سور كثيرة، وبتأكيدات بالغة، ولم يتحاش القرآن العظيم تردادها وتكرارها، فإنه حقيق أن يكون خطاب الحكيم المطلق لهؤلاء الجهلة والضعيفي العقول كذلك بتأكيد بليغ وتكرار مزيد.

الجدل القرآني مع اليهود

أنواع ضلال اليهود:

لقد كان اليهود يؤمنون بالتوراة، وكان ضلالهم التحريف في أحكام التوراة، سواء كان تحريفاً لفظياً أو تحريفاً معنوياً، وكتمان آيات التوراة، وإلحاق ما ليس منها بها، والتقصير في تنفيذ أحكامها، والعصبية الشديدة لديانتهم واستنكار رسالة سيدنا محمد ﷺ وسوء الأدب مع رسول الله ﷺ بل مع الرب تبارك وتعالى والبخل والحرص، وأمثالها من الرذائل الخُلُقية.

التحريف اللفظي:

وقد تحقق لدى الفقير أن تحريفهم اللفظي إنما كان في ترجمة التوراة وما يجري مجراها، لا في أصل التوراة، وهذا هو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

التحريف المعنوي وبعض أمثلته:

أما التحريف المعنوي فإنه عبارة عن التأويلات الفاسدة وحمل الآيات على غير معانيها المرادة بتعسف وانحراف عن قصد السبيل، ونذكر فيما يلي عدداً من وجوه التحريف المعنوية:

المثال الأول:

إن الفرق بين المتدين الفاسق والكافر الجاحد معتبر في كل ملة من الملل، وتوعد الكافر بالخلود في النار والعذاب الأليم وأثبت للفاسق خروجه من النار بشفاعة الأنبياء والمرسلين، وجاء التصريح في كل ديانة بذلك باسم التدين بتلك الديانة، فأثبت ذلك في التوراة لليهود والعبريين، وفي الإنجيل للنصرانيين، وفي القرآن العظيم للمسلمين.

والحقيقة أن مناط الحكم هو الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، والإيمان بالنبي الذي بعث لهم، والانقياد له والعمل بشريعته، والإجتناب عن نواهيه، لا خصوص الديانة أو خصوص الطائفة المسماة باليهود والنصرانيين وغيرهم، ولكن اليهود بدأوا يظنون أن كل من كان يهودياً أو عبرياً، فهو من أهل الجنة، ولا بد أن

تناله شفاعة الأنبياء وتخلصه من العذاب، وأنه لا يمكث في النار إلا أياماً معدودات، ولو لم يكن مناط الحكم ـ الذي قد سبق بيانه ـ متحققاً ولم يكن إيمانه بالله تعالى على الوجه الصحيح ولا يملك شيئاً من الإدراك الصحيح لمعنى الرسالة والآخرة، وهذا هو الخطأ الصريح والجهل الصرف.

ولما كان القرآن العظيم مهيمناً على الكتب السابقة ومبيِّناً لما فيها من إبهام وغموض، فقد كشف شبهاتهم هذه ورد عليها ردوداً واضحة مقنعة. ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

المثال الثاني:

إن الأحكام ذُكرت في كل ملة من الملل السابقة حسب مصالح عصرها ودورها، وروعيت في التشريع عادات الناس الصالحة، وأكد الحكم بالأخذ بها والمداومة عليها واعتقادها، وانحصار الحق فيها، والمراد أن الحق منحصر فيها في ذلك العصر، وأن المداومة عليها إضافية وليست مداومة حقيقة، أي أنها صالحة للعمل إلى أن يأتي نبي جديد ويكشف الستار عن رسالة جديدة، ولكن اليهود حملوا ذلك على استحالة النسخ، وكانت الوصاة بالتمسك بتلك الملة والعض عليها تعني التمسك بالإيمان والأعمال الصالحة، ولا اعتبار لخصوص ملة من الملل ولا دخل لها فيها، ولكن هؤلاء اعتقدوا أن الخصوص معتبر، وأن يعقوب عليه السلام إنما وصى بنيه بالتمسك «باليهودية».

المثال الثالث:

إن الله تبارك وتعالى شرّف الأنبياء والتابعين لهم بإحسان في كل ملة من الملل بوصفهم مقربين، محبوبين مرضيين، ووصف أعداءهم والجاحدين للتهم بالمغضوب عليهم، والملعونين والممقوتين، وجاءت هذه الصفات في كل ملة في قوالب الألفاظ والكلمات المعروفة السائدة فيهم لهذه المعاني، فما الغرابة إذن، لو ذكرت كلمة «الأبناء» بدل المحبوبين!؟.

ولكن اليهود ظنوا أن هذا التشريف يدور على اسم اليهودي والعبري والإسرائيلي، ولم يعرفوا أن هذا التشريف ليس لاسم دون اسم، إنما هو لأجل

الانقياد والطاعة والخضوع، والسير على طريق الأنبياء والمرسلين، ليس غير.

وهناك كثير من أمثال هذه التأويلات الفاسدة التي ركزت في نفوسهم، وتلقَّوْها وتوارثوها عن آبائهم، وقد تكفل القرآن الكريم بردها ورفع هذه الشبهات ودحضها وإبطالها أتم إبطال.

كتمان الآيات:

أما كتمان الآيات فإن اليهود كانوا لأجل المحافظة على جاه شريف أو كبير، أو لطلب منصب أو رئاسة يخفون بعض الأحكام والآيات من التوراة، حتى لا يذهب اعتقاد الناس فيهم بتركهم للعمل بها، وانصرافهم عنها، ولنذكر بعض الأمثلة منه:

١ ـ كان من تلك الأحكام، حكم رجم الزاني، الذي كان مصرحاً به في التوراة ولكنهم لإجماع أحبارهم على ترك الرجم واستبداله بالجلد وتسحيم الوجه تركوا العمل برجم الزاني، وكان الأحبار ـ خشية الفضيحة والعار ـ يخفون تلك الآيات التي فيها نص هذا الحكم الصريح.

٢ ـ كذلك تلك الآيات التي ذكرت فيها بشارة هاجر وإسماعيل عليهما السلام بأنه سوف يولد في أعقابهم من يبعثه الله تعالى نبياً ورسولاً، والآيات التي تحمل إشارات واضحة إلى دين يظهر ويبلغ كماله في أرض الحجاز، وتضج به جبال عرفات بالتلبية، ويؤم الناس لزيارتها من الأقطار والأمصار.

وبالرغم من أن هذه الآيات لا تزال توجد في التوراة حتى اليوم كان اليهود يتأولونها بأن هذه الآيات إنما تخبر بظهور ذلك الدين ولكنها لا تأمر بإتباعه والخضوع له، وكانت هذه الكلمة على طرف لسانهم «ملحمة كتبت علينا».

ولكن لما كان عامة اليهود أنفسهم لا تقبل نفوسهم هذه التأويلات الركيكة الباطلة، ولا يعترفون بصحتها وسلامتها، كانوا يتواصون فيما بينهم أن لا يفشوا هذا السر ولا يتعالنوه فيما بينهم: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾.

فيا أسفي على جهل اليهود بل على كذبهم وافترائهم، أفهل كان امتنان الله تعالى على هاجر وإسماعيل عليهما السلام بهذه المبالغة والتأكيد، وذكر هذه الأمة الخيرة بهذا التشريف والتكريم يعني غير ذلك من معنى؟ يمكن به اليهود أن يزعموا أن هذه الآيات لا تدل على الحث والتحريض على اتباع هذا الدين والتسليم له! سبحانك هذا إفك عظيم.

الإلحاق والافتراء:

وأما الإلحاق والافتراء على الله تعالى ونسبة ما يكتبونه بأيديهم إلى الله تعالى وإلى التوراة، فيرجع سببه إلى أن أحبارهم ورهبانهم تعمقوا وتشدوا في الدين، وسلكوا طريق الإستحسان أي إستنباط بعض الأحكام بناءاً على إدراك المصالح فيها بدون أي نص من الشارع، بل بالعقل المصلحي والهوى البشري، وروّجوا استنباطات واهية، واستحسانات دخيلة، فوضعها أتباعهم موضع الأصل وألحقوها به، واعتقدوا اتفاق سلفهم على شيء حجةً قاطعة، ولم يكن لديهم مستند في إنكار نبوة عيسى عليه السلام إلا أقوال سلفهم، وكذلك حالهم في كثير من الأحكام.

وأما التقصير والتساهل في تنفيذ أحكام الشريعة وارتكاب المناهي، والبخل والحرص، وما إلى ذلك فظاهر أنه من مقتضيات النفس الأمّارة بالسوء ولا ينجو منها إلا من شاء ربك ورحمه، ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾.

ولكن هذه الرذيلة في أهل الكتاب تحمل لوناً آخر، إذ أنهم يتكلفون تأويلات فاسدة لتبريرها، وإبرازها في صورة التدين وصبغها بصبغة الأحكام الشرعية.

أسباب استبعاد رسالة سيدنا محمد ﷺ:

وأما استبعاد رسالة سيدنا محمد ﷺ فيرجع سببه إلى اختلاف عادات الأنبياء وأحوالهم وسيرهم في الإكثار من التزوج مثلاً والتقليل منه وأمثال ذلك، واختلاف شرائعهم ومناهجهم، واختلاف سنن الله تعالى في معاملة أنبياء ورسله، وبعثة نبي

في بني إسماعيل، وقد كان جمهور الأنبياء قبل ذلك يبعثون في بني إسرائيل، وأمثال هذه الأسباب.

الغرض من النبوة:

والأصل في هذه المسألة أن النبوة يقصد منها إصلاح النفوس، وإصلاح العادات الجارية في القوم الذين يبعث إليهم النبي، لا إنشاء أصول البر والإثم، والخير والشر.

مجال عمل النبوة في إصلاح الناس:

وكل قوم يملكون عادات ومناهج خاصة في عباداتهم، ونظام أسرهم، واجتماعهم وسياستهم ومدنيتهم فإذا ظهرت فيهم النبوة، فإنها لا تستأصل هذه العادات ولا تضع لها عادات جديدة، بل إنما تقيم الميزان القسط، وتميز بينها، فما كان منها موافقاً للأصل، مطابقاً لرضا الله تعالى أبقته وحفظته، وما كان منها مخالفاً للأصل، منافياً لرضا الله تعالى عدلته حسب الضرورة وسوّته.

كذلك يكون التذكير بآلاء الله، والتذكير بأيام الله ـ على هذا الأسلوب ـ بما يكون معروفاً عندهم، شائعاً لديهم، فهذا هو السبب في اختلاف شرائع الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

اختلاف شرائع الأنبياء
كاختلاف وصفات الطبيب:

وهذا الاختلاف في شرائع الأنبياء كالاختلاف في أحكام الطبيب، فإنه عند معالجته لشخصين مختلفَيْ المزاج، يصف لأحدهما أدوية وأغذية باردة، وللآخر أدوية وأغذية حارة، وغرض الطبيب من معالجتها واحد، وهو إصلاح مزاجه، وإزالة الفساد الطارىء عليه، ليس غير، ويمكن أن يصف الطبيب لكل منطقة أدوية وأغذية مختلفة تلائم أهلها، كما يمكن أن يختار في كل فصل من الفصول وطقس من الطقوس علاجاً مختلفاً يناسب الفصل والطقس.

كذلك لما أراد الحكيم المطلق والطبيب الحقيقي معالجة مرض النفوس

والقلوب، واقتضت مشيئته ـ جلّ مجدُه ـ إصلاح مزاجهم، وتقوية ملكاتهم، وإزالة الفساد الطارىء عليهم، اختلف علاجه ـ تقدست ـ أسماؤه لاختلاف عادات الشعوب والأمم، واختلاف ملكاتهم واستعداداتهم ومراعاة للمشهورات والمسلَّمات عندهم.

وعلى كل، فإنك إذا أردت أن ترى نماذج اليهود في هذه الأمة فانظر إلى علماء السوء، طلاب الدنيا، المولعين بتقليد آبائهم، المعرضين عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الذين يستندون إلى تعمقات العلماء وتشديداتهم، واستنباطاتهم التي لا أصل لها في الكتاب والسنة، تاركين كلام الشارع المعصوم ﷺ يتتبعون الأحاديث الموضوعة، ويجرون وراء التأويلات الفاسدة.

الجدل القرآني مع النصارى:

ضلال النصارى في بحث حقيقة المسيح عليه السلام:

لقد كان النصارى يؤمنون بسيدنا عيسى عليه السلام ولكن ضلالهم كان في تقسيمهم الرب تبارك وتعالى إلى ثلاثة أجزاء تتغاير من بعض الوجوه، وتتحد من بعض آخر، وكانوا يسمونها «الأقانيم الثلاثة»، أحدها: الأب الذي يحتل مكانة «مبدأ العالم»، والثاني: الابن، وهو بمعنى «الصادر الأول» الذي يعنى الكليَّ العام الشامل لجميع الموجودات، والثالث: أقنوم روح القدس، وهو يعني «العقول المجردة».

أقنوم «الابن» تَقَمَّص المسيح عليه السلام:

وكانوا يعتقدون أن أقنوم الابن تقمص روح المسيح عليه السلام أي كما أن الملَك جبرائيل كان يأتي أحياناً في صورة رجل، كذلك ظهر «الابن» في صورة عيسى، ولذلك فهو «الإله» أيضاً، وهو «ابن الله» كذلك، وهو البشر أيضاً، وتجري بالنسبة إليه الأحكام البشرية والأحكام الإلهية على السواء.

دليل هذه العقيدة الباطلة:

وقد استندوا في استنباط هذه العقيدة الغريبة إلى بعض الآيات في الإنجيل التي ذكر فيها لفظ «الابن» والآيات التي نسب فيها المسيح عليه السلام بعضَ أفعال الله تعالى إلى نفسه.

جواب الإشكال الأول:

وهو ورود لفظ «الابن» في آيات الإنجيل بالنسبة لعيسى عليه السلام، إذا سلمنا أن ما نقل في الإنجيل من مثل هذه الآيات هي من كلام عيسى عليه السلام لا من الإضافات والإلحاقات: أن لفظ «الابن» في العهد القديم كان يستعمل بمعنى المقرب والمحبوب والمختار، وتشهد على هذه الدعوى دلائل وقرائن كثيرة في الإنجيل.

جواب الإشكال الثاني:

وهو نسبة سيدنا عيسى عليه السلام بعضَ أفعال الله تعالى إلى نفسه، إذا سلمنا صحتها وثبوت نقلها عنه: أنها على طريق الحكاية، مثل أن يحكى رسول المَلِك عنه فيقول: فتحنا البلد الفلاني، وحطمنا القلعة الفلانية، فظاهر أن هذا الرسول ليس إلا ترجماناً للملك ومبلغاً عنه، وحقيقة الفعل راجعة إلى الملك نفسه.

ويمكن أن يكون الوحي إلى عيسى عليه السلام عن طريق انطباع المعاني في لوح قلبه من قبل الملأ الأعلى، لا تمثل جبرائيل عليه السلام بصورة البشر وإلقاء الوحي إليه، فبسبب هذا الانطباع المباشر جرى منه من الكلام ما أشعر بنسبة الأفعال إليه، مع أن الحقيقة غير ذلك، والأمر واضح.

وبالجملة فإن الله تعالى رد على هذه المسالك الباطلة، وبين أن عيسى عبدالله، **وروحه** الطاهرة التي نفخ بها في مريم الصديقة عليها السلام وأنه أيده بروح القدس، وحاطه بعناية وكِلاءَة خاصة.

الخطأ في استعمال الألفاظ:

وعلى كل، فلوسلمنا جدلاً أن الله تعالى ظهر في كسوة روحية من جنس سائر

الأرواح، وتـدّرع بالبشـرية، ثم أردنـا أن نكشف هذه النسبـة والعلاقـة كشفاً صحيحاً لم يجز لنا أن نستعمل لذلك لفظ «الاتحاد» إلا بتجوز كبير، وأقرب ما يمكن التعبير به عنه هـو لفظ «التقويم» أو شبهه من الألفاظ. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

موازنة بين النصارى وبين المبتدعة من المسلمين:

وإذا أردت أن ترى نموذجاً لهؤلاء الضالين في قومك فانظر إلى كثير من أولاد الأولياء و «المقدسين» ما هي تصوراتهم عنهم واعتقاداتهم فيهم وإلى أي حد وصلوا بهم! ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾.

اعتقادهم بصلب المسيح عليه السلام:

ومن ضلالات النصارى في معتقداتهم أنهم يؤمنون بقتل عيسى صلباً، مع أن الواقع خلاف ذلك، وقد شُبِّه لهم والتبس عليهم الأمر، فظنوا رفع عيسى عليه السلام إلى السماء قتلاً له وصلباً، وتوارثوا ذلك فيما بينهم جيلاً بعـد جيل حتى كشف القرآن الكريم عن شبهتهم وأزاح الستار عن الحقيقة قائلاً: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم﴾.

وما حكي في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام مما يشير إلى قتله، فإنه ليس إلا إخباراً منه بجراءة اليهود وإجرامهم وإقدامهم على قتله، لكن الله عصمه منهم وخلّصه من أيديهم، وما جاء فيه من كلام الحواريين بهذا الصدد فإنه ناشىء عن الاشتباه والتباس الأمر، ولم يكن لهم اطلاع على الرفع الذي لم تكن تألفه عقولهم ولم تسمعه من قبل آذانهم.

ضلالهم في حمل كلمة «فار قليط»
على عيسى عليه السلام:

ومن ضلالاتهم أيضاً أنهم يزعمون أن الفار قليط الموعود بمجيئه والمبشر بقدومه في الإنجيل هو عيسى عليه السلام نفسه الذي جاء بعد قتله ـ حسب زعمهم ـ إلى الحواريين، وأوصاهم بالتمسـك بالإنجيـل. ويزعمـون أن عيسى عليه السـلام

أوصاهم أيضاً بأن المدعين للنبوة سيكثرون، فمن ذكرني وسمّاني فاقبلوا كلامه، وإلا فردوه.

وقد بين القرآن العظيم أن بشارة عيسى عليه السلام تصدُقُ على سيدنا محمد ﷺ لا على الصورة الروحية لعيسى عليه السلام كما يدعون، إذ أنه قد صرح في الإنجيل بأن «فار قليط يمكث فيكم مدة طويلة، ويعلمكم ويزكي النفوس» ولم يظهر ذلك بعد عيسى عليه السلام إلا من نبينا محمد ﷺ.

وأما ذكر عيسى وتسميته، فالغرض منه التصديق بنبوته، لا أن يُتخذ رباً، أو يُعتقد بأنه ابن الله. ﴿سبحان الله رب العرش عما يصفون﴾.

الجدل القرآني مع المنافقين

المنافقون صنفان:

كان المنافقون صنفين، فكانت طائفة منهم تشهد بلسانها بلا إله إلا الله محمد رسول الله، ولكن قلوبها كانت مطمئنة إلى الكفر والجحود، وكانت تتظاهر بإسلامها للمصالح، وهؤلاء هم الذين قيل فيهم: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾.

مظاهر النفاق العملي:

وكانت الطائفة الأخرى ممن دخلوا في الإسلام مع ضعف فيه وقلة إيمان به، فهم مثلاً يجرون على عادات قومهم ويدورون مع مصلحتهم، فإن أسلم قومهم أسلموا، وإن كفر قومهم كفروا، أو كان الإنسياق وراء اللذات الدنيوية قد ملك قلوبهم بحيث لم يذر مكاناً لحب الله تعالى ورسوله ﷺ أو استولى عليهم الحرص وحب المال، والحسد والضغينة وما إلى ذلك من رذائل الأخلاق والعادات، بحيث لم تعد في قلوبهم بشاشة الإيمان وحلاوة الدعاء والإبتهال وبركات العبادات، أو انغمسوا في شؤون دنياهم إلى حد أن لم تكن لديهم فرصة لترقب الآخرة والتفكير فيها، أو كانت تمر بخواطرهم وقلوبهم ظنون سيئة وشبهات سطحية ركيكة في رسالة نبينا ﷺ، رغم أنهم لم يبلغ بهم الحال إلى أن يخلعوا عن عنقهم ربقة الإسلام، وينفضوا منه أيديهم بتاتاً.

وقد كانت تنشأ عندهم هذه الشكوك والشبهات بسبب ما يجري من أحكام البشرية على ذات الرسول ﷺ، وبسبب ظهور الملة الإسلامية في صورة سيطرة الملوك واستيلائهم على نواحي البلاد، وأمثال ذلك من الأسباب المادية التي قد تشوش بعض ضعاف الإيمان وتنشيء فيهم الشبهات، أو لحبهم لقبائلهم وعشائرهم ـ مثلاً ـ الذي دفعهم إلى أن يساعدوها ويقووها ويؤيدوها ـ جهدهم ـ ولو على حساب الإسلام، ومناوئة أهله، وبذلك يُضعفون الإسلام ويلحقون به الضرر. وهذا القسم من النفاق هو نفاق الأعمال والأخلاق.

النفاق الاعتقادي لا يُطّلع عليه بعد الرسول ﷺ:

أما النفاق الأول ـ وهو النفاق الاعتقادي ـ فإنه لا يطلع عليه بعد سيدنا رسول الله ﷺ إذ أنه من الأمور المغيبة، ولا اطلاع لأحد على مكنونات القلب ومغيباته.

النفاق العملي كثير الوقوع:

وأما النفاق الثاني ـ وهو النفاق العملي ـ فإنه كثير الوقوع لا سيما في عصرنا هذا، وإلى هذا النفاق وقعت الإشارة في الحديث الشريف، الذي جاء فيه: «ثلاثٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»، و «همّ المنافق بطنه وهمّ المؤمن فرسه» إلى غير ذلك من الأحاديث.

كشف القرآن عن أحوال المنافقين:

وقد كشف الله تعالى في القرآن الحكيم عن أعمال هؤلاء المنافقين وأخلاقهم، وبيّنها أتم بيان، وأكثر من ذكر أحوال الطائفتين من المنافقين حتى تكون الأمة على حذر منها وتجتنبها كل الاجتناب.

نماذج المنافقين في هذا العصر:

وإن كنت تحب أن تشاهد نموذجاً لهؤلاء المنافقين فاشهد في مجالس الأمراء أصحابهم وندماءهم الذين يؤثرون رضا أمرائهم على رضا الله تعالى ولا فرق إطلاقاً بين المنافقين الذين سمعوا أحاديث الرسول ﷺ مباشرة ثم نافقوا، وبين هؤلاء

المنافقين الآن الذين يطلعون على أحكام الشريعة الإسلامية بالـوسائط اليقينيـة القاطعة ثم يخالفونها وينحرفون عنها.

نفاق المناطقة والفلاسفة:

كذلك طائفة المناطقة والفلاسفة الذين بذرت في قلوبهم بـذور الشكوك، وتمكنت منهم كثير من الشبهات، ونسوا الدار الآخرة هم أيضاً من المنافقين من دون شك.

القرآن كتاب كل عصر:

وعلى كل، فإنه لا ينبغي أن يُظن عند تلاوة القرآن الكريم أن جداله ومحاجته كانا مع أناس قد انتهوا وانقضوا ـ كلا ـ بل إنه بحكم ما جاء في الحديث: «لتتبعن سَنَن من كان قبلكم...» إلخ.

ليست هناك من فتنة كانت في عهد الرسالة صلى الله على صاحبها وسلم إلا ولها نماذج وأمثلة في عصرنا هذا، ولذلك فالمطلوب الحقيقي هو بيان كليات هذه المقاصد والمعاني لا خصوص الحوادث والتفصيلات الجزئية.

وهذا هو التحقيق الذي تيسر لي في تفصيل عقائد هذه الفرق الباطلة والردود عليها، وأخال أن هذا البحث المحقق، فيه غنية وكفاية لفهم آيات الجدل القرآني إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

في بقية العلوم الخمسة

وضوح القرآن الكريم في بيان الصفات:

من المعلوم أن نزول القرآن الكريم إنما كان لإصلاح النفوس البشرية، وتهذيب معاشر الناس سواء كانوا عرباً أو عجماً، بدواً أو حضراً، ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يُخاطب الناس في «التذكير بآلاء الله» إلا ما تسعه معلوماتهم، وتحيط به مداركهم، وأن لا يخوض في البحوث الدقيقة والتحقيقات النادرة، فقد تعرض القرآن الكريم للأسماء والصفات الإلهية بطريقة واضحة سهلة، يدركها جميع أفراد البشر بفطرتهم، وبمداركهم التي أودعت في أصل خِلقتهم من دون حاجة إلى ممارسة الفلسفة الإلهية، أو علم الإلهيات وعلم الكلام.

إثبات الخالق في القرآن:

فأثبت القرآن ـ مثلاً ـ وجود الخالق إجمالاً، إذ أن علمه مركوز في فِطَر بني آدم، ويتساوى فيه جميع أفرادهم ولا تجد طائفة من الناس في المناطق المعتدلة أو القريبة منها تنكر هذا العلم، وتستغرب وجود الخالق!.

الصفات الإلهية في القرآن:

ثم لما كان إثبات الصفات الإلهية بذكر كنهها وحقائقها ودقيق مسائلها مستحيلاً في حقهم، وكان تركهم من دون اطلاع على هذه الصفات الإلهية يحرمهم من معرفة الربوبية ـ التي هي أنفع وسيلة في تهذيب النفوس البشرية ـ كان من حكمة الله تعالى ـ وهو أحكم الحاكمين ـ أن يختار من الصفات البشرية التي نعهدها ونشاهدها والتي نتمادح بها ونفتخر بالتحلي بها، صفات كريمة عديدة

تستعمل لإداء معان غامضة دقيقة لا تبلغ جلالها وعظمتها عقول البشر، ثم يجعل قوله الفصل: ﴿ليس كمثله شيء﴾ ترياقاً لداء الجهل العضال، وعلاجاً لقلة البصر والإدراك، ونهى عن استعمال تلك الصفات البشرية التي يخشى منها جموح الأوهام والظنون نحو العقائد الباطلة كإثبات الولد، والبكاء، والجزع وما إلى ذلك.

خطر الخوض في الصفات بدون توقيف:

وإذا أنعمت النظر وتأملت مسألة الصفات الإلهية بدقة تجلّى لك أن خطوات الإنسان على درب علمه الفطري غير المكتسب، وتمييزه للصفات التي يجوز أن تنسب إلى الله تعالى ـ ولا يقع فيها خلل عن الصفات التي يؤدي استعمالها إلى الأوهام الباطلة والعقائد المنحرفة ـ أمر دقيق خطير للغاية، لا يصل غوره ولا يكتنه كنهه جمهور الناس، ولذلك قرر أن يكون علم الصفات الإلهية علماً توقيفياً، ولا يُسمح فيه بالبحث والكلام بحرية وإطلاق.

أسلوب القرآن في بيان آلاء الله:

ولم يتعرض القرآن العظيم من آلاء الله تعالى وآيات قدرته العجيبة إلا لما يستوي في إدراكه الحضري والبدوي والعربي والعجمي، ولا يصعب فهمه على عاقل، ولأجل ذلك لم يذكر النعم الروحانية الخاصة التي ينعم بها على عباده الأنبياء والأولياء والعلماء الصالحين بصفة خاصة من مراتب الكمالات ومدارج التقرب ومنازل التقوى، ولم يذكر الملاذ والنعم التي تحصل أحياناً للملوك والسلاطين وأفرادٍ قلائلَ من البشر، بل ذكر ما كان ذكره أنسب، من خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السحاب، وتفجير الينابيع في الأرض، وإخراج النبات والأشجار والأزهار والثمار بالماء، وإلهام الصنائع والحرف الضرورية، وخلق القدرة لممارستها ومزاولتها، ونبّه إلى تغير مواقف الناس عند السراء والضراء، ولدى النعم والبأساء في مواضع كثيرة، إذ أن هذا من أمراض القلب وانحراف النفس الذي يكثر وقوعه، وتكثر أمثلته.

أسلوب القرآن الكريم في التذكير بأيام الله:

أما «أيام الله» وهي تلك الوقائع والحوادث التي أوجدها الله تعالى انعاماً على المطيعين وانتقاماً من العصاة المجرمين، فقد اختار منها أيضاً ما قرعت أسماعهم من قبل، وكانوا قد سمعوا قصصها بصورة إجمالية، مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود، التي كان العرب يسمعونها ويتداولونها فيما بينهم كابراً عن كابر، وقصص سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقصص أنبياء بني إسرائيل التي ألفتها أسماعهم لطول اختلاط العرب مع اليهود، ولم يتعرض القرآن الكريم للقصص الغريبة ولا لقصص عذاب الله تعالى أو ثوابه للفرس والهنود، كما أنه لم يذكر من القصص المشهورة إلا الأجزاء الضرورية التي تنفع في التذكير والموعظة، ولم يستقص جميع التفاصيل الخاصة التي تشتمل عليها القصص.

حكمة هذا الأسلوب القرآني:

والحكمة والمصلحة المرعيّة في ذكر القصص المشهورة، والإكتفاء بالأجزاء المهمة من القصة، والتحاشي عن غرائب القصص والتفاصيل الجزئية، هي أن العامّة من الناس عندما يسمعون حكاية غريبة أو قصة عجيبة أو قصة كاملة بجميع خصوصياتها وفصولها، فإن طباعهم تميل إلى نفس القصة وتولع بها، ويفوت الغرض الأساسي ـ وهو التذكير ـ من بيان القصة الذي يهدف إليه القرآن الكريم.

نكتة حكيمة:

ومثال ذلك كما قال بعض الحكماء العارفين: «من يوم أن بدأ الناس يُحكمون قواعد التجويد ويصححون الحروف حُرموا التلاوة الخاشعة للقرآن الكريم، ومن يوم أن بدأ المفسرون يشقون الشعرة في التأويل والتوجيه، أصبح «علم التفسير» غريباً قليل الوجود».

ظاهرة التكرار في القصص القرآني:

والقصص التي جاءت في القرآن مرات وكرات، هي قصة خلق آدم من الطين، وسجود الملائكة له، واستكبار الشيطان عنه ولعنه وطرده لأجله، وسعيه

من ذاك في إغواء بني آدم واضلالهم، وقصص محاجة نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم ولوط، وشعيب مع شعوبهم وأقوامهم في توحيد الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستكبارها وطغيانها وادلائها بشبهات ركيكة، وردود الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات عليها، ونزول عذاب الله تعالى ونقمه على الأشقياء، وظهور نصرة الله تعالى وتأييده في حق الأنبياء والأتباع، وقصص سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وسفهاء بني إسرائيل، ومكابرتهم له، وعقاب الله تعالى لأولئك التعساء وتركهم يتيهون في الأرض، وظهور تأييدات الله تعالى المتتالية لنجيّه وكليمه عليه السلام، وقصص سيدنا داود وسليمان عليهما السلام، وخلافتهما ومعجزاتهما وخوارقهما، وقصة محنة سيدنا أيوب وسيدنا يونس عليهما السلام، وظهور رحمة الله تعالى وعطفه عليهما، وقصة دعاء سيدنا زكريا عليه السلام، واستجابة الله تعالى إياه، والقصص العجيبة لسيدنا عيسى عليه السلام وولادته من غير والد، وتكلمه في المهد وظهور الخوارق والمعجزات على يده، وأمثال هذه من القصص التي اطردت في القرآن الحكيم بألوان مختلفة من الإيجاز والإطناب، والتفصيل والإجمال حسب مقتضى الأساليب المرعية في السور.

القصص التي لم تتكرر في القرآن كثيراً:

أما القصص التي لم تتكرر في القرآن تكرار القصص الأولى، بل وردت في موضع أو موضعين فحسب فهي:

قصة رفع سيدنا إدريس عليه السلام مكاناً علياً، وقصة محاجة إبراهيم لنمرود، ومشاهدته لإحياء الطير، وقصة ذبح ولده الوحيد، وقصة سيدنا يوسف عليه السلام، وقصة ولادة سيدنا موسى عليه السلام، وإلقائه في اليم ووكزه للقبطي وقتله إياه، ثم توجهه إلى «مدين» وتزوجه هناك، ومشاهدته النار على الشجرة وسماع الكلام منها، وقصة ذبح البقرة، وقصة لقاء موسى مع الخضر عليهما السلام، وقصة طالوت وجالوت، وقصة بلقيس ملكة سبأ، وقصة ذي القرنين، وقصة أصحاب الكهف، وقصة الرجلين المتحاورين، أحدهما يعتز بما لَه من مال وبنينَ وجنات من أعناب، والآخر قليل المال ولكنه يذكره بالله تعالى ونعمته وشكره والآخرة، وقصة أصحاب الجنة الذين أرادوا أن يحرموا الفقراء

المساكين من عطاياهم وصدقات أموالهم، فرجعوا محرومين والجنة خاوية على عروشها، وقصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم سيدنا عيسى عليه السلام لدعوته، واعتدى عليهم الكفار وقتلوهم، وقصة أصحاب الفيل، وغير ذلك.

غرض القصة في القرآن:

وليس الغرض من سرد هذه القصص في القرآن الكريم الاطلاع عليها والتعرف على جزئياتها فحسب، بل الغرض الأساسي والحقيقي هو أن ينتقل ذهن القارىء والسامع إلى شناعة الشرك والمعاصي، ومعاقبة الله تعالى عليها، والإيمان بنصر الله تعالى وتأييده، وظهور ألطافه وأفضاله في حق عباده المخلصين.

التذكير بالموت وما بعده أو التذكير بالآخرة:

والمراد بالتذكير بالموت وما بعده أو التذكير بالآخرة عرض كيفية الإنسان لدى موته، وعجزه واستكانته في تلك الساعة الحرجة العصيبة، وعرض الجنة والنار عليه بعد الموت، وظهور ملائكة العذاب لعينيه، وأشراط القيامة من نزول سيدنا عيسى عليه السلام وخروج الدّجال، وخروج يأجوج ومأجوج، ونفخة الصعق، ونفخة القيام والنشر والحشر، والسؤال والجواب، والميزان والصراط، وأخذ صحائف الأعمال بالأيمان والشمائل، ودخول المؤمنين الجنة وحشر الكفار في النار، وتخاصم أهل النار تابعيهم ومتبوعيهم، وسادتهم وكبرائهم، وعامتهم وضعفائهم فيما بينهم، وإنكار بعضهم بعضاً، ولعن إحداهم الأخرى، واختصاص المؤمنين برؤية الله تعالى، وذكر أنواع العذاب وتعداد ألوانه وأطواره من سلاسل وأغلال، وحميم وغساق، وضريع وزقوم، وبيان أنواع النعم والملذات من حور وقصور، وجنات وأنهار، ومطاعمَ هنيئةٍ شهية، وملابس زاهية ناعمة، وغيد حسان مقصورات في الخيام، ومجالس أهل الجنة الفكهة اللطيفة، ولقاءاتهم الطيبة الحبيبة، كل هذا مما قد قصه القرآن الكريم، وبثه في مختلف السور مراعياً أساليبها الخاصة المتفردة تارة بالإجمال والإختصار، وأخرى بالتفصيل والاسهاب.

القاعدة الكلية في مبحث الأحكام:

والقاعدة الكلية في مبحث الأحكام والحلال والحرام أن سيدنا رسول الله

ﷺ كان قد بُعث في الملة الإبراهيمية الحنيفية، فكان من اللازم أن يُبقي على شرائع تلك الملة، ولا يُحدث أي تغيير في أمهات أحكامها وأصول مسائلها، اللهم إلا تخصيصاً لعموماتها وزيادة للتوقيتات والتحديدات فيها وأمثال ذلك من الأمور.

ثم إن الله تعالى أراد أن يزكيَ نفوس العرب بنبينا محمد ﷺ، ويزكي نفوس سائر العالم بأيدي العرب الأولين والرعيل الإيماني الأول، فلزم أن تكون مادة شريعته تدور على عادات العرب وتقاليدهم التي توارثوها من الملة الحنيفية أو انحرفوا عن جادتها في كثير من شؤون الحياة.

الأسباب والمصالح المرعية في الأحكام:

وإذا تأملت وأنعمت النظر في مجموع شرائع الملة الحنيفية وأحكامها، ولاحظت عادات العرب ورسومهم وتقاليدهم، وتشريعات الرسول الخاتم ﷺ التي هي بمنزلة المصلح والمهذب لها، تدرك لكل حكم من أحكامها سبباً من الأسباب وتتوصل في كل أمر ونهي من أوامرها ونواهيها إلى مصلحة مرعية من المصالح، وتفصيل ذلك يطول.

دور التشريعات الإسلامية
في إصلاح الملة الحنيفية المحرّفة:

وبالجملة فإن العبادات من الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج والأذكار كانت قد تعرضت للإهمال والتساهل العظيم في أدائها والقيام بها، ولاختلاف الناس - لجهل أكثرهم بها وغفلتهم عنها - في مشروعيتها، وتسرب التحريفات الجاهلية إليها فنزل القرآن العظيم وقضى على هذه الفوضى والاختلال، وأقام إعوجاجها وعدلها وسواها.

وكانت الحياة الإجتماعية والعائلية تغلغلت فيها كثير من التقاليد المجحفة والطقوس الجائرة، وعوامل البغي والعدوان، وهكذا كان شأن الحكم والسياسة من الاختلال والاضطراب والفوضى، فضبط القرآن العظيم أصول هذه القضايا، وحدد لها حدوداً وشرع لها تشريعات خاصة.

ولقد كان كثير من الكبائر والصغائر راجعاً إلى هذا الأصل متعلقاً بهذا الباب.

القرآن أجملَ والسنة فصّلت:

وقد جاءت أحكام الصلاة ومسائلها في القرآن العظيم مجملة، واستعمل لفظ «الإقامة» للصلاة، الذي تناوله النبي ﷺ بالتفصيل بالأمر ببناء المساجد والجماعة وبيان المواقيت، كذلك وردت أحكام الزكاة باختصار وإيجاز، وفصلها النبي ﷺ أيّما تفصيل، وجاء ذكر الصوم أيضاً في سورة البقرة، والحج والجهاد والقتال في سورتي البقرة والأنفال ومواضع متفرقة أخرى، وذكرت الحدود في سورة المائدة والنور وجاءت المواريث في سورة النساء، وأحكام النكاح والطلاق في سورة البقرة والنساء والطلاق، وغيرها من السور.

قسم آخر من الأحكام في القرآن:

وبعد أن مضى هذا القسم من الأحكام الذي تعم فائدته جميع أفراد الأمة، نذكر قسماً آخر يتعلق بالحوادث والوقائع الخاصة وإن كان حكمها عاماً، وكانت صور تشريعه كالتالي:

- فتارة كانوا يسألون في حضرة النبي ﷺ عن شيء فيرد النبي ﷺ عليه فيكون ذلك طريقاً للتشريع.
- أو تقع حادثة يجود فيها المؤمنون بأنفسهم وأموالهم، ويجبن فيها المنافقون ويبخلون، فيمدح الله تعالى في كتابه المؤمنين، ويذم المنافقين ويتوعدهم وينذرهم بالعذاب الأليم.
- أو تقع حادثة من حوادث الغلبة على الأعداء وكف عدوانهم وإضرارهم، فيمنّ الله تعالى بذلك على المؤمنين ويذكرهم بنعمته وفضله في كتابه الحكيم.
- أو تحدث حالة من الحالات تقتضي تنبيهاً وزجراً، أو إيماءاً وتعريضاً، أو أمراً أو نهياً، فيُنزل الله تعالى ما تقتضيه الحال وتستدعيه الأوضاع الخاصة.
- فلا بد للمفسر من ذكر هذه القصص التي لا تنكشف معاني الآيات إلا ببيانها بطريق الإجمال.

بعض الأمثلة من هذه القصص:

فقد وردت التعريضات بقصة غزوة بدر في سورة الأنفال، وبقصة أحد في

سورة آل عمران، وقصة غزوة الخندق في سورة الأحـزاب، وقصة الحـديبية في سورة الفتح ، وقصة بني النضير في سورة الحشر، وجاء الحث على فتح مكة المكرمة وغزوة تبوك في سورة البراءة، ووردت الإشارة إلى حجة الوداع في سورة المائدة، والإشارة إلى قصة زواج زينب رضي الله عنها في سورة الأحزاب، وقصة تحريم السرية في سورة التحريم، وقصة الإفك في سورة النور، وجاء ذكر استماع وفد الجن تلاوة النبي ﷺ في سورة الجن والأحقاف، وقصة مسجد الضرار في سورة البراءة، وقصة الإسراء في أول سورة بني إسرائيل.

نوع من التذكير بأيام الله:

وهذا القسم من الآيات الكريمة في حقيقـة الأمر نـوع من أنواع التـذكير بأيام الله ولكن لما كان الكشف عن هذه التعريضات التي تتضمنها هذه الآيات يعتمد على سماع القصة والتعرف على خلفية الحادث، لذلك أُفرد عن سائر أنواعه وذكر بصورة مميزة.

الباب الثاني

في بيان وجود الدقة والخفاء في معاني نظم القرآن الكريم وتناسقه بالنسبة لأهل هذا العصر، وإزالتها بأوضح بيان

نزول القرآن عربياً مبيناً:

لِيُعلم أن القرآن الكريم العظيم نزل في لغة العرب الأقحاح، اللغة المبينة الواضحة، وفهمه العرب بسليقتهم اللغوية الأصلية، وأدركوا مغزاه ومعانيه، قال الله تعالى: ﴿حم والكتاب المبين﴾، وقال تعالى: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت﴾.

موقف الشارع من المتشابهات:

وقد كان من ما يُرضي الشارع الحكيم عدم الخوض في تأويل المتشابهات القرآنية وتصوير حقائق الصفات الإلهية، وتسمية المبهمين، واستقصاء القصص والوقائع وأمثال ذلك من الأمور، ولذلك قَلَّ سؤال الصحابة رضي الله عنهم للرسول ﷺ عن مثل ذلك، ولم يرفع في هذا الباب من الأحاديث إلا شيء قليل.

الحاجة إلى البحث في اللغة والنحو:

ولكن لما مضت تلك الطبقة الأولى من الرعيل الأول وداخل العربُ العجم، وذهبت تلك اللغة الأصيلة الأولى واستعصى فهم المطالب والمعاني في بعض المواضع، ومست الحاجة إلى التفتيش والبحث في اللغة والنحو، وجرت

المناقشات والأسئلة والأجوبة، وصنفت كتب التفسير، لزم أن نستحضر ـ بصورة إجمالية ـ هذه المواضع الصعبة، ونبين نماذجها وأمثلتها حتى لا يُحتاج عند الخوض فيها إلى بيان مزيد ولا يضطر إلى المبالغة في الكشف عنها وشرحها عند الترجمة والتفسير.

أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام:

- فتارة يصعب التوصل إلى فهم المراد من الكلام لاستعمال لفظة غريبة، ويعالج ذلك بنقل معنى اللفظة عن الصحابة والتابعين وسائر أهل اللغة.
- وتارة أخرى لقلة الإطلاع على الناسخ والمنسوخ.
- وحيناً للغفلة عن أسباب النزول.
- وحيناً آخر بسبب حذف المضاف أو الموصوف، أو غيرهما.
- وأحياناً بإبدال شيء، أو إبدال حرف مكان حرف، أو إسم مكان إسم، أو فعل مكان فعل، أو جمع مكان مفرد أو العكس، أو أسلوب الغيبة مكان أسلوب الخطاب.
- وأحياناً لتقديم ما حقه التأخير من حيث عرف اللغة والنحو أو العكس.
- وأحياناً بسبب انتشار الضمائر ورجوعها إلى عدة مراجع، أو تعدد المراد من اللفظة الواحدة.
- وأحياناً بسبب التكرار والإطناب.
- وأحياناً لأجل الاختصار والإيجاز.
- وأحياناً لاستعمال الكناية والتعريض، والمتشابه والمجاز العقلي.

فينبغي للإخوة السعداء أن يطّلعوا على حقيقة هذه الأمور وبعض أمثلتها في مبدأ البحث، ويكتفوا بالرموز والإشارات في مواضع التفصيل.

الفصل الأول

في بحث غريب القرآن

أفضل الشروح لغريب القرآن:

إن من أفضل الشروح لغريب القرآن الكريم بل أولها بالإطلاق في هذا الباب هو ما أثر وصح عن ترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن طريق ابن أبي طلحة وقد اعتمده الإمام البخاري غالباً في جامعه الصحيح.

طريق الضحاك ونافع:

ويلي ذلك ما روي عن طريق الضحاك عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وأجوبة ابن عباس رضي الله عنهما عن سؤالات نافع بن الأزرق.

وهذه هي الطرقِ الثلاث التي ذكرها السيوطي في كتابه «الإتقان».

شرح أئمة التفسير:

ثم يأتي بعد ذلك شرح الغريب الذي نقله الإمام البخاري عن أئمة التفسير. ويليه ذلك الشرح للغريب الذي روي عن سائر الصحابة والتابعين وأتباعهم.

وأرى من المناسب أن أجمع في الباب الخامس من هذه الرسالة جملة صالحة من شرح غريب القرآن الكريم مع بيان أسباب النزول، وأجعلها رسالة مفردة مستقلة حتى إذا شاء أحد، ضمها إلى هذه الرسالة، وإذا أحب آخر أن يأخذها كرسالة مستقلة فليفعل ذلك. وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وليُعلم أن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين يفسرون اللفظ ـ

أحياناً ـ بلازم معناه، ويتعقب المفسرون المتأخرون هذا التفسير القديم نظراً إلى تتبع اللغة والفحص عن موارد استعمالها فيها، والغرض المطلوب في هذه الرسالة ذكر تفسيرات السلف وشروحهم للألفاظ الغريبة بنصها وفصها، أما تنقيحها ونقدها فله موضع آخر غير هذا الموضع، «فلكل مقام مقال ولكل نكتة مجال».

الفصل الثاني

في مبحث الناسخ والمنسوخ

من المواضع الصعبة في علم التفسير التي تكثر مباحثها، ويكثر الاختلاف فيها، معرفة الناسخ والمنسوخ، ومن أقوى وجوه هذه الصعوبة اختلاف الاصطلاح بين المتقدمين والمتأخرين في هذا الباب.

معنى النسخ عند المتقدمين:

والذي يتضح لنا باستقراء كلام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين في هذا الموضوع أنهم كانوا يستعملون النسخ بمعناه اللغوي المعروف الذي هو إزالة شيء بشيء، لا بمعنى مصطلح الأصوليين الخاص.

- فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف في آية بآية أخرى، سواء كان ذلك بياناً لانتهاء مدة العمل بآية من الآيات الكريمة، أو صرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر أو بيان أن القيد اتفاقي وليس احترازياً، أو تخصيصاً للعموم، أو بيان الفارق بين المنصوص والمقيس عليه ظاهراً، أو إزالة عادة من العادات الجاهلية، أو رفع شريعة من الشرائع السابقة.

سعة مجال النسخ عند المتقدمين:

وهكذا اتسع باب النسخ عندهم وتوسعوا في موضوعه، وكان للعقل فيه مجال فسيح، وللاختلاف فيه مكان واسع.

ولذلك بلغت الآيات المنسوخة إلى خمسمائة آية، بل إذا حققت النظر تجدها غير محصورة بعدد.

معنى النسخ عند المتأخرين:

أما المنسوخ حسب اصطلاح المتأخرين الأصوليين فإنه لا يتجاوز العدد القليل، لا سيما حسب وجهة النظر التي اخترناها.

موقف السيوطي في الإتقان:

وقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي في كتابه «الاتقان» ـ بعد إيراده لما روي عن العلماء في هذا الباب ببسط وتفصيل حسبما يليق بالموضوع ـ الآيات المنسوخة حسب رأي المتأخرين موافقاً للشيخ ابن العربي، وعددها قرابة عشرين آية، وللمؤلف في أكثرها نظر، فلنورد كلامه مع التعقب.

الآيات المنسوخة عند السيوطي
وتعقبات المؤلف

فالآيات التي ذكرها السيوطي وابن العربي هي كما يلي:

فمن البقرة:

١ ـ آية الوصية للوارث:

قوله تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ الآية، منسوخة قيل بآية المواريث، وقيل بحديث: «لا وصية لوارث»، وقبل بالإجماع، حكاه ابن العربي.

قلت: بل هي منسوخة بآية: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾، وحديث: «لا وصية لوارث» مبين للنسخ.

٢ ـ آية الفدية لمن أطاق الصوم:

وقوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ قيل منسوخة بقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ وقيل محكمة، و «لا» مقدّرة قبل ﴿يطيقون﴾، أي لا يطيقون.

قلت: عندي وجه آخر، وهو: أن المعنى وعلى الذين يطيقون الطعام فدية، هي طعام مسكين، فاضمر قبل الذكر، لأنه متقدم رتبة، وَذُكّر الضمير لأن المراد

من الفدية هو الطعام، والمراد منه، صدقة الفطر، عقّب الله تعالى الأمر بالصيام في هذه الآية بصدقة الفطر، كما عقب الآية الثانية بتكبيرات العيد.

٣ ـ آية حلّ الرفث ليلة الصيام:

وقوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ إلخ، ناسخة لقوله تعالى: ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ لأن مقتضاه الموافقة فيما كانوا عليه من تحريم الأكل والوطىء بعد النوم، ذكره ابن العربي، وحكى قولاً آخر أنه نسخ لما كان بالسنة.

قلت: معنى ﴿كما كتب﴾ التشبيه في نفس الوجوب فلا نسخ إنما هوتغيير لما كان عندهم قبل الشرع.

ولم نجد دليلاً على أن النبي ﷺ شرع لهم ذلك، ولو سلم فإنما كان ذلك ثابتاً بالسنة الفعلية لا أنه شرعه لهم وأمرهم به.

٤ ـ آية القتال في الشهر الحرام:

وقوله تعالى: ﴿يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ الآية منسوخة بقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ الآية، أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة.

قلت: هذه الآية لا تدل على تحريم القتال، بل تدل على تجويزه، وهي من قبيل تسليم العلة وإظهار المانع، فالمعنى أن القتال في الشهر الحرام كبير شديد ولكن الفتنة أشد منه، فجاز في مقابلتها، وهذا التوجيه ظاهر من سياقها كما لا يخفى.

٥ ـ آية المتاع إلى الحول:

وقوله تعالى: ﴿والذين يتوفون﴾ إلى قوله: ﴿إلى الحول﴾ منسوخة بالميراث، والسكنى باقية عند قوم منسوخة عند آخرين بحديث: «لا سكنى» إلخ.

قلت: هي كما قال منسوخة عند جمهور المفسرين ويمكن أن يقال: يستحب أو يجوز للميت الوصية ولا يجب على المرأة أن تسكن حسب وصيته، وعليه ابن عباس رضي الله عنهما وهذا التوجيه ظاهر من الآية.

٦ ـ آية المحاسبة على الباطن والظاهر:

وقوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ منسوخة بقوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها﴾.

قلت: هو من باب تخصيص العام، بينت الآية المتأخرة أن المراد ما في أنفسكم من الاخلاص والنفاق، لا من أحاديث النفس التي لا اختيار فيها، فإن التكليف لا يكون إلا فيما هو في وسع الإنسان.

ومن آل عمران:

٧ ـ آية اتقاء الله حق التقوى:

قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾.

قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وقيل: لا، بل هو محكم، وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية.

قلت: ﴿حق تقاته﴾ في الشرك والكفر وما يرجع إلى الاعتقاد، و﴿ما استطعتم﴾ في الأعمال، من لم يستطع الوضوء يتيمم، ومن لم يستطع القيام يصلي قاعداً، وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وهو قوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

ومن سورة النساء:

٨ ـ آية الإيتاء للموالي:

قوله تعالى: ﴿والذين عقدت إيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾.

قلت: ظاهر الآية، أن الميراث للموالي والبر والصلة لمولى الموالاة، فلا نسخ.

٩ ـ آية إيتاء اليتامى والمساكين من الميراث:

وقوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى﴾ إلخ قيل منسوخة، وقيل لا، ولكن تهاون الناس في العمل بها.

قلت: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي محكمة، والأمر للاستحباب، وهذا أظهر.

١٠ ـ آية التعزير لمرتكبات الفواحش:

وقوله تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ الآية، منسوخة بآية النور.

قلت: لا نسخ في ذلك، بل هو ممتد إلى الغاية فلما جاءت الغاية، بيّن النبي ﷺ أن السبيل الموعود كذا وكذا، فلا نسخ.

ومن المائدة:

١١ ـ آية النهي عن إحلال الشهر الحرام:

قوله تعالى: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ إلخ منسوخة بإباحة القتال فيه.

قلت: لا نجد في القرآن ناسخاً له، ولا في السنة الصحيحة ولكن المعنى: أن القتال المحرم يكون في الشهر الحرام أشد تغليظاً كما قال النبي ﷺ في الخطبة: «دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

١٢ ـ آية الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم:

وقوله تعالى: ﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم﴾ منسوخة بقوله: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله﴾.

قلت: معناه إن اخترت الحكم فاحكم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم.

فالحاصل أنه لنا أن نترك أهل الذمة أن يرفعوا القضية إلى زعمائهم، فيحكموا بما عندهم، ولنا أن نحكم بما أنزل الله علينا.

١٣ ـ آية حمل الشهادة عن الميت في الغربة:

وقوله تعالى: ﴿أو آخران من غيركم﴾ إلخ، منسوخ بقوله: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم﴾.

قلت: قال أحمد بظاهر الآية: ومعناها عند غيره أو آخران من غير أقاربكم، فيكونون من سائر المسلمين.

ومن الأنفال:

١٤ ـ آية مغالبة المسلم الواحد العشرة من الكفار:

قوله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون﴾ الآية منسوخة بالآية بعدها.

قلت: كما قال منسوخة.

ومن البراءة:

١٥ ـ آية الأمر بالنفر خفافاً وثقالاً:

قوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ الآية، منسوخة بآيات العذر، وهو قوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء﴾ الآيتان.

قلت: خفافاً أي مع أقل ما يتأتى به الجهاد من مركوب وعبد للخدمة، ونفقة يقنع بها.

وثقالاً: مع الخدم الكثير، والمركب الكثير.
فلا نسخ، أو نقول: ليس النسخ متعيناً.

ومن سورة النور:

١٦ ـ آية استقباح نكاح الزانية:

قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ الآية، منسوخة بقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾.

قلت: قال أحمد بظاهر الآية، ومعناها عند غيره أن مرتكب الكبيرة ليس بكفوء إلا للزانية، أو لا يستحب اختيار الزانية، وقوله تعالى: ﴿وحرم ذلك﴾ إشارة إلى الزنا والشرك، فلا نسخ وأما قوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى﴾ فعام لا ينسخ الخاص.

١٧ ـ آية الأمر للعبيد والخدم بالاستيذان:

وقوله تعالى: ﴿ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ الآية منسوخة، وقيل: لا، ولكن تهاون الناس في العمل بها.

قلت: مذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنها ليست بمنسوخة، وهذا أوجه وأولى بالاعتماد.

ومن الأحزاب:

١٨ ـ آية عدم حِلّ النساء للنبي ﷺ بعد أزواجه:

قوله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ الآية.

قلت: يحتمل أن يكون الناسخ مقدماً في التلاوة وهوالأظهرعندي.

ومن المجادلة:

١٩ ـ آية الأمر بإيتاء الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ:

قوله تعالى: ﴿إذا ناجيتم الرسول فقدموا﴾ الآية منسوخة بالآية بعدها.

قلت: هذا كما قال.

ومن الممتحنة:

٢٠ ـ آية المبادلة بين مهور الأزواج:

قوله تعالى: ﴿فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ قيل: منسوخ بآية السيف، وقيل: بآية الغنيمة، وقيل: محكم.

قلت: الأظهر أنه محكم، ولكن الحكم في المهادنة وعند قوة الكفار.

ومن المزمل:

٢١ ـ آية الأمر بقيام الليل:

قوله تعالى: ﴿قم الليل إلا قليلاً﴾ منسوخ بآخر السورة، ثم نسخ الآخر بالصلوات الخمس.

قلت: دعوى النسخ بالصلوات الخمس غير متجهة بل الحق أن أول السورة في تأكيد الندب إلى قيام الليل وآخرها نسخ التأكيد إلى مجرد الندب.

قال السيوطي موافقاً لابن العربي: فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة على خلاف في بعضها، ولا يصح دعوى النسخ في غيرها والأصح في آية الاستيذان والقسمة، الإحكام وعدم النسخ، فصارت تسعة عشر.

قلت: وبما حررته لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات.

الفصل الثالث

في أسباب النزول

صعوبة موضوع أسباب النزول:

ومن المواضيع الصعبة أيضاً معرفة أسباب النزول، ووجه الصعوبة في هذا الباب كذلك اختلاف المتقدمين والمتأخرين فيها.

معنى نزلت في كذا:

وما يستفاد من استقراء كلام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم لا يقولون «نزلت في كذا» لمجرد بيان الحادث الذي وقع في عهد النبي ﷺ وكان سبباً لنزول تلك الآية، بل إنهم يستعملون هذا التعبير أحياناً لبيان ما تنطبق عليه الآية وتصدق عليه مما حدث في عهد النبي ﷺ أو بعده، فهو بيان لصورة من الصور التي تصدق عليها الآية، فيقولون عند ذاك «نزلت في كذا»، ولا يلزم في مثل هذا الموضع أن تنطبق جميع القيود الواردة في الآية على الحادث، بل يكفي أن ينطبق أصل الحكم الوارد فيها.

وتارة يكون قد أورد بعض الصحابة رضي الله عنهم في حضرته ﷺ سؤالاً. أو يقع حادث في عهد النبي ﷺ، ويكون هو ﷺ قد استنبط حكمه من آية من الآيات وتلاها عليهم في ذلك الباب، فيحكون هذا الحادث ويقولون «نزلت الآية في كذا»، وتارة يقولون عند ذلك «فانزل الله تعالى قوله كذا» أو «فنزلت كذا». وإذا عبر أحد عن ذلك بتكرار نزول الآية فله كذلك مَساغ.

روايات المحدثين التي لا علاقة لها بأسباب النزول:

ويورد المحدثون في هذا الباب أشياء كثيرة ضمن الآيات القرآنية لا علاقة لها بأسباب النزول مثل: استشهاد الصحابة رضي الله عنهم بآية من الآيات القرآنية في مناظرتهم، أو تمثلهم بآية، أو تلاوة النبي ﷺ آية من الآيات للإستشهاد على كلامه، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل غرضها وفحواها، أو في تعيين موضع نزولها، أو تحديد أسماء المذكورين فيها بصورة مبهمة، أو بيان طريقة التلفظ بكلمة قرآنية، أو في فضل الآيات والسور، أو بيان طريق امتثال النبي ﷺ لأمر من أوامر القرآن الكريم.

وكل هذه ـ في الحقيقة ـ ليست من أسباب النزول في شيء وليس من شروط المفسر إستيعابها والإحاطة بها.

شروط المفسر في باب أسباب النزول:

إنما يشترط على المفسر في هذا الباب معرفة شيئين:

١ ـ معرفة تلك القصص التى تتضمن الآيات الكريمة التعريض بها فإن فهم إيماء هذه الآيات وإشارتها لا يتيسر إلا بمعرفة تلك القصص.

٢ ـ معرفة تلك القصة التي تفيد التخصيص للعام وأمثال ذلك مما يصرف فيه الكلام عن ظاهره المتبادر منه، إذ أن فهم مقاصد الآيات ومراميها لا يتأتى بدون ذلك.

أكثر قصص الأنبياء السابقين من روايات أهل الكتاب:

وينبغي أن يُعلم هنا، أن قصص الأنبياء السابقين لم تذكر في الأحاديث الصحيحة إلّا قليلاً، وأن هذه القصص الطويلة العريضة التي يتجشم روايتها المفسرون، ويحكونها في تفاسيرهم كلها منقولة عن أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى. وقد جاء في صحيح البخاري: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم».

معان أخرى لقولهم «نزلت في كذا»:

وليعلم أيضاً، أن الصحابة التابعين رضي الله عنهم أجمعين كانوا يحكون ـ أحياناً ـ قصصاً جزئية لبيان مذاهب المشركين واليهود وعاداتهم الجاهلية حتى تتضح عقائدهم وتتجلى عاداتهم هذه في ضوء الوقائع والقصص، ويقولون في ذلك «نزلت الآية في كذا» ويريدون بذلك أن الآية نزلت في زمن قريب من هذه الوقائع، فيريدون إبراز هذه الصورة لا تخصيصها بل إن هذه الحادثة صورة صادقة للأمور الكلية. ولأجل ذلك كثيراً ما تختلف أقوالهم، وتتنازع تعبيراتهم رغم أن قصدهم واحد، وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه حين قال: «لا يكون الرجل فقيهاً حتى يحمل الآية الواحدة على محاملَ متعددة».

أسلوب القرآن الكريم في بيان الشر والخير:

وعلى هذا يكثر في أسلوب القرآن العظيم أنه يعرض صورتين، صورة سعيدٍ ويذكر معها بعض خلال السعادة، وصورة شقي ويذكر معها بعض صفات الشقاوة، ولا يكون الغرض من عرضها إلّا بيان أحكام هذه الخلال والصفات والأعمال لا التعريض بشخص معين من الأشخاص، قال تعالى ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ إلخ.

ثم ذكر بعد ذلك صورتين لفريقين صورة سعيد وصورة شقي، كذلك قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم، قالوا أساطير الأولين﴾ وقوله تعالى: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾.

وهكذا ينبغي أن تحمل الآيات التالية على هذا المعنى: ﴿ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة﴾ الآية، ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها﴾ الآية، ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾، ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ الآيات.

ولا يلزم في هذه الصورة أن تتوفر جميع الخصوصيات ذاتها في شخص خاص، كما أن في قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة

حبة﴾ الآية. لا يلزم أن توجد حبة بهذه الصفة بعينها، إنما الغرض هنا هو تصوير زيادة الأجر والثواب ليس غير، فإذا وجدت صورة توافق هذا الوصف في أكثر خصائصه أو في كلها فهو من قبيل «لزوم ما لا يلزم».

عرض بعض الآيات في صورة السؤال والجواب:

وفي بعض الأحيان يأتي رد على شبهة ظاهرة الورود، أو جواب لسؤال قريب الفهم، ويكون الغرض إيضاح الكلام السابق، لا أن أحداً وجه هذا السؤال بعينه أو أورد هذه الشبهة بعينها، وكثيراً ما يفترض الصحابة رضي الله عنهم في مثل هذه المواضع سؤالاً وجواباً، ويشرحون الكلام في صورة السؤال والجواب، والحقيقة أننا إذا تأملنا ودققنا النظر نجد الكلام كله مستقيماً مترابطاً لا يحتمل نزول شيء منه بعد شيء في فترات متقطعة، بل هو كلام منتظم، لا تُحل عراه ولا تفك قيوده على أي أصل من الأصول.

التقدم والتأخر الرتبي:

وأحياناً يذكر الصحابة رضي الله عنهم التقديم والتأخير في بعض الآيات، ومرادهم بذلك هو التقدم والتأخير الرتبي كما قال ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ إلخ الآية «هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله تعالى طهوراً للأموال».

فمن المعلوم أن سورة البراءة آخر سورة نزلت، وجاءت هذه الآية في تضاعيف القصص المتأخرة، وقد كانت فرضية الزكاة قبلها بأعوام، فمراد ابن عمر رضي الله عنهما هو تقدم الإجمال ـ رتبةً لا نزولاً ـ على التفصيل الذي هو متأخر رتبة وإن كان متقدماً نزولاً.

وبالجملة فإن شروط المفسر في هذا الباب لا تتجاوز هذين الأمرين: أولهما، قصص الغزوات وغيرها التي ترد فيها الإيماءات إلى خصوصيات القصص والأحداث بحيث لا تفهم الآيات إلا في ضوء الإطلاع عليها.

والثاني، الإطلاع على فوائد بعض القيود وأسباب التشديد والتأكيد في بعض المواضع التي تتوقف معرفة حقيقتها على معرفة أسباب النزول.

وهذا المبحث الأخير هو في الأصل فن من فنون التوجيه.

فن التوجيه:

ويراد بالتوجيه بيان وجه الكلام ومعناه وحاصل هذه الكلمة أنه:

- قد تقع أحياناً في الآية شبهة ظاهرة لاستبعاد تلك الصورة التي تدل عليها الآية.
- أو يبدو ـ في ظاهر الأمر ـ تناقض وتعارض في مفهوم الآية.
- أو يصعب فهم مدلول الآية على ذهن المبتدىء.
- أو لا تتمكن من ذهنه فائدة قيد من القيود.

فإذا قام المفسر بحل هذه الإشكالات اعتبر ذلك «توجيهاً».

أمثلة للتوجيه:

مثال ذلك قوله تعالى على لسان بني إسرائيل: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوء﴾ إلخ الآية.

فقد ورد هنا سؤال، وهو أن المدة بين موسى وعيسى عليهما السلام مدة طويلة، فكيف أمكن أن يكون هارون أخا مريم؟.

كأن السائل كان قد أضمر في نفسه أن هارون هذا الذي ذكر هنا هو هارون أخو موسى عليهما السلام فأجاب النبي ﷺ بأن «بني إسرائيل كانوا يسمون بأسماء الصالحين من الماضيين» فهارون ليس شخصاً واحداً، بل هارون أخو مريم غير هارون أخو موسى عليهما السلام.

- وكذلك لما سألوا رسول الله ﷺ: كيف يمشي الإنسان يوم الحشر على وجهه، قال ﷺ: «إن الذي أمشاه في الدنيا على رجليه لقادر أن يمشيه على وجهه».
- وهكذا لما سألوا ابن عباس رضي الله عنهما عن الآية التي يقول الله تعالى فيها: ﴿لا يتساءلون﴾ وعن الآية التي يقول الله تعالى فيها: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ الآية.

كيف يمكن التوفيق بين الآيتين؟ قال: عدم التساؤل في يوم الحشر،

والتساؤل بعد الدخول في الجنة.

- وسألوا عائشة رضي الله عنها: إذا كان السعي بين الصفا والمروة واجباً فلماذا قال الله تعالى: ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ الآية.

قالت رضي الله عنها: كان الناس يتجنبون ذلك ويتحرجون منه فلذلك قيل: ﴿لا جناح﴾.

- وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ ما معنى قيد ﴿إن خفتم﴾ في قوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فلا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا...﴾ الآية فقال ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم» أي أن الكرماء لا يضيّقون في الصدقة، كذلك الرب تبارك وتعالى لم يذكر هذا القيد للتضييق، بل إنما ورد القيد اتفاقاً.

وأمثلة التوجيه كثيرة، والغرض هنا التنبيه على معناه والمقصود منه.

تنقيح أسباب النزول وتوجيه المشكل من
تفسيرات البخاري والترمذي والحاكم:

ويحلو لي أن أنقل في الباب الخامس من تفسيرات البخاري والترمذي والحاكم ما يتعلق بأسباب النزول وتوجيه المشكل مما رووه بأسانيدهم إلى الصحابة رضي الله عنهم وإلى الرسول ﷺ بتنقيح وتهذيب واختصار لفائدتين مهمتين.

أولاهما: أن استخصار هذا القدر من الآثار والروايات لا بد منه لكل مفسر مثل شرح غريب القرآن، لا بد للمفسر من حفظ القدر الذي ذكرناه منه فيما تقدم.

الثانية: أن يُعلم أنه لا دخل لأكثر ما يروى من أسباب النزول في فهم معاني الآيات الكريمة اللهم إلا شيء قليل من القصص والروايات التي وردت في هذه التفاسير الثلاثة التي هي أصح التفاسير لدى المحدثين.

إفراط محمد بن إسحاق الكلبي:

وأما إفراط محمد بن إسحاق الكلبي في هذا الباب حيث أورد تحت كل آية قصة تروى، أو حكاية تذكر فإنها لا تصح لدى المحدثين، وفي أسانيدها نظر.

الإحاطة بجميع روايات أسباب النزول ليست من شروط المفسر:

وإن اعتبار معرفتها شرطاً من شروط التفسير خطأ بيّن، والإعتقاد بأن تدبر كتاب الله تعالى يتوقف على الإحاطة بها واستحضارها تفويت لحظ النفس من كتاب الله وحرمان من إدراك روحه وجوهره.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

الفصل الرابع

في بقية مباحث هذا الباب

وهو يشتمل على حذف بعض الأجزاء أو أدوات الكلام الذي يسبب الخفاء والإشكال، وكذلك إبدال شيء بشيء وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، واستعمال المتشابهات والتعريضات والكنايات، وتصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة التي تكون من لوازم ذلك المعنى عادة، وهو ما يسمى بالإستعارة المكنية والمجاز العقلي، فلنعرف هنا ببعض أمثلة هذه الأشياء باختصار حتى تحصل للقارىء بصيرة في هذا الموضوع.

الحذف

أما الحذف فإنه ينقسم إلى عدة أقسام:

١ - حذف المضاف ٢ - حذف الموصوف ٣ - حذف **المتعلق** ٤ - حذف غير ذلك.

مثال حذف المضاف:

قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن﴾ الآية. أي: بر من آمن.

مثال حذف الموصوف:

قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ الآية. أي: آية مبصرة، لا أنها مبصرة غير عمياء.

مثال آخر لحذف المضاف:

قوله تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ الآية. أي: حب العجل.

مثال ثالث لحذف المضاف:

قوله تعالى: ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس﴾ الآية. أي: بغير قتل نفس. ﴿أو فساد﴾. أي بغير فساد.

مثال حذف الموصول:

قوله تعالى: ﴿من في السموات والأرض﴾. أي: ومن في الأرض، لأن شيئاً واحداً هو في السموات والأرض.

أمثلة أخرى لحذف المضاف:

قوله تعالى: ﴿ضعف الحياة وضعف الممات﴾ الآية. أي: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. ﴿واسأل القرية﴾ أي: أهل القرية. ﴿وبدلوا نعمة الله كفراً﴾ أي: فعلوا مكان شكر نعمة الله كفراً.

أمثلة لحذف الموصوف:

قوله تعالى: ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾ أي: للخصلة التي هي أقوم. ﴿بالتي هي أحسن﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسن. ﴿سبقت لهم منا الحسنى﴾ أي: الكلمة الحسنى والعدة الحسنى.

أمثلة لحذف المضاف:

قوله تعالى: ﴿على ملك سليمان﴾ أي: على عهد ملك سليمان. ﴿وعدتنا على رسلك﴾: أي: على ألسنة رسلك.

أمثلة أخرى متفرقة:

قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي: أنزلنا القرآن، وإن لم يسبق له ذكر.

- ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أي توارت الشمس.
- ﴿ وما يلقاها﴾ أي: خصلة الصبر.
- ﴿وعبد الطاغوت﴾ فيمن قرأ بالنصب، أي: جعل منهم من عبد الطاغوت.

- ﴿فجعله نسباً وصهراً﴾ أي: جعل له نسباً وصهراً.
- ﴿واختار موسى قومه﴾ أي: من قومه.
- ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي: كفروا نعمة ربهم وكفروا بربهم بنزع الخافض.
- ﴿تفتؤ تذكر﴾ أي: لا تفتؤ تذكر، ومعناه: لا تزال.
- ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، أي: يقولون ما نعبدهم.
- ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ أي: الذين اتخذوا العجل إلهاً.
- ﴿تأتوننا عن اليمين﴾ أي: وعن الشمال أيضاً.
- ﴿فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون﴾ أي: تقولون: إنا لمغرمون.
- ﴿لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة﴾ أي: بدلاً منكم.
- ﴿كما أخرجك ربك﴾ أي: امض كما أخرج ربك.

حذف خبر إن وجزاء الشرط وغير ذلك:

وليعلم أن حذف خبر «إن» أو حذف جزاء الشرط أو مفعول الفعل أو مبتدأ الجملة، وأمثال ذلك إذا كان ما بعده يدل عليه مطرد في القرآن الحكيم وتكثر أمثلته.

مثال حذف المفعول:

قوله تعالى: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أي: فلو شاء هدايتكم لهداكم.

مثال حذف المبتدأ:

قوله تعالى: ﴿الحق من ربك﴾ أي: هذا الحق من ربك.

أمثلة أخرى متفرقة:

قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا﴾ الآية أي: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق من بعد الفتح، فحذف الثاني لدلالة قوله تعالى: ﴿أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد﴾.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون * وما

تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي: إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا.

التحقيق الدقيق في كلمة «إذ»:

وليعلم أيضاً أن الأصل في مثل قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ ﴿وإذ قال موسى﴾ أن كلمة «إذ» ظرف فعلي، ولكنها نقلت إلى معنى التخويف والتهويل وأمثال ذلك، فكأن شخصاً يستحضر المواضع الهائلة أو الوقائع الهائلة العظيمة من دون تركيب للجمل، ومن غير وقوع للكلمات في حيز الإعراب، فإن الغرض المطلوب هو استحضارها وذكرها حتى ترتسم صورتها البارزة في ذهن المخاطب، ويستولي الخوف منها واستهوالها على قلبه وضميره.

فالتحقيق هو أنه في أمثال هذه المواضع لا حاجة إلى التفتيش والبحث عن العامل في هذه الكلمة، والله أعلم.

حذف الجار:

وليعلم أيضاً أن حذف الجار من «أن» المصدرية مطرد في كلام العرب، ويكون المراد حينئذ «لأن» أو «بأن».

حذف جواب الشرط:

وليعلم أيضاً أن الأصل في مثل قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾، ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾.

أن جواب الشرط محذوف، إلا أنهم نقلوا هذا التركيب للعبارة إلى معنى التعجب فلا حاجة إذن في مثل ذلك إلى البحث والتفتيش عن المحذوف.

الإبدال

أما الإبدال فإنه تصرف كثير الشعب والفنون:

١ ـ فتارة يذكرون فعلاً مكان فعل لمقاصد شتى، وليس استيعابها واستقصاء البيان فيها من وظيفة هذا الكتاب.

أمثلة لإبدال الفعل:

قوله تعالى:

- ﴿هذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي: يسب آلهتكم فكان أصل الكلام «أهذا الذي يسب» إلا أنهم كرهوا ذكر السب، فأبدلوه بالذكر. ومن هذا القبيل ما يستعمل في محاورات الناس عند مخاطبتهم لسادتهم أو مكرميهم.

«أصيب أعداء فلان بمرض» «وقدم عبد حضرتكم إلى المكان الفلاني» أو «اطلع عبيد الجناب العالي على هذه المقدمة» وهذه كلها تعبيرات فارسية كانوا يتقدمون بمثل هذه العبارات إلى سادتهم وكبرائهم ويريدون أن قد مرض حضرة فلان، وقدم حضرة أو سعادة فلان، واطلع معالي فلان، أو سمو فلان.

قوله تعالى:

- ﴿منا لا يُصحبون﴾ أي: منا لا ينصرون، ولما كان النصر والتأييد لا يتصوران بدون الاجتماع والصحبة، أبدل «ينصرون» بـ «يصحبون».
- ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أي: خفيت لأن الشيء إذا خفي علمه ثقل على أهل السموات والأرض.
- ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً﴾. أي: عفون لكم عن شيء مما طابت به نفوسهن.

إبدال اسم باسم:

٢ - وتارة يبدلون اسماً باسم، وفيما يلي أمثلته:

قوله تعالى:

- ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي: خاضعة.
- ﴿فكانت من القانتين﴾ أي: من القانتات.
- ﴿فما لهم من ناصرين﴾ أي: من ناصر.
- ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي: حاجز.
- ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خسر﴾ أي: أفراد بني آدم، أُفرد اللفظ لأنه اسم جنس.

- ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ المعنى: يا بني آدم، أفرد اللفظ لأنه اسم جنس.
- ﴿وحملها الإنسان﴾ يعني: أفراد الناس.
- ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أي نوحاً وحده.
- ﴿إنا فتحنا لك﴾ أي: إني فتحت لك.
- ﴿إنا لقادرون﴾ أي: إني لقادر.
- ﴿ولكن الله يسلط رسله﴾ أي: يسلط محمداً ﷺ.
- ﴿الذين قال لهم الناس﴾ أي: عروة الثقفي وحده.
- ﴿فأذاقها الله لباس الجوع﴾ أي: طعم الجوع.

ابدل الطعام باللباس إيذاناً بأن الجوع له أثر من القحول والذبول ما يعم البدن ويشمله كاللباس.

- ﴿صبغة الله﴾ أي: دين الله.

أبدل بالصبغة إيذاناً بأنه كالصبغ تتلون به النفس أو مشاكلة بقول النصارى في المعمودية.

- ﴿وطور سينين﴾ أي: طور سيناء.
- ﴿سلام على الياسين﴾ أي: على الياس.

قلب الاسمان للازدواج.

إبدال حرف بحرف:

٣ ـ وتارة يبدلون حرفاً مكان حرف، ومن أمثلته: قوله تعالى:

- ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ أي: على الجبل، كما تجلى في المرة الأولى على الشجرة.
- ﴿وهم لها سابقون﴾ أي: إليها سابقون.
- ﴿لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم﴾ أي: لكن من ظلم، فهو استيناف.
- ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي: على جذوع النخل.
- ﴿أم لهم سلّم يستمعون فيه﴾ أي: يستمعون عليه.
- ﴿السماء منفطر به﴾ أي منفطر فيه.

- ﴿مستكبرين به﴾ أي: عنه.
- ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ أي: حملته العزة على الإثم.
- ﴿فاسأل به خبيراً﴾ أي: فاسأل عنه.
- ﴿لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي: مع أموالكم.
- ﴿إلى المرافق﴾ أي: مع المرافق.
- ﴿يشرب بها عباد الله﴾ أي: يشرب منها.
- ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنـزل الله على بشر من شيء﴾ أي: أن قالوا.

إبدال جملة بجملة:

٤ ـ وأحياناً يوردون جملة مكان جملة، فتدل ـ مثلاً ـ جملة على حاصل مضمون الجملة الثانية، وسبب وجودها فيبدلونها بتلك الجملة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:
- ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ أي: إن تخالطوهم فلا بأس بذلك لأنهم إخوانكم، وشأن الأخ أن يخالط أخاه.
- ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ أي: لوجدوا ثواباً، ومثوبة من عند الله خير.
- ﴿إن يسرق، فقد سرق أخ له من قبل﴾ أي: إن سرق فلا عجب لأنه سرق أخ له من قبل.
- ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك، بإذن الله﴾ أي: من كان عدواً لجبريل فإن الله عدو له، فإنه نزله على قلبك، فعدوه يستحق أن يعاديه الله تعالى، فحذف «فإن الله عدو له» بدليل الآية التالية، وأبدل منه ﴿فإنه نزله على قلبك﴾.

إبدال التنكير بالتعريف:

٥ ـ وأحياناً يقتضي الكلام التنكير ـ في ظاهر الأمر ـ ولكن قد يتصرفون فيه بالتعريف والإضافة، ويبقى المعنى على التنكير كما كان، ومن أمثلته: قوله تعالى:
- ﴿وقيله يا رب﴾ أي: قيل له يا رب، فابدل بقيله لأنه أخصر في اللفظ.

- ﴿حق اليقين﴾ أي حق يقين، أضيف ليكون أيسر في اللفظ.

إبدال التأنيث والتذكير والإفراد بأضدادها:

٦ - وأحياناً يكون الكلام على سننه الطبيعي المعروف يقتضي تذكير الضمير أو تأنيثه أو إفراده، فيصرف عن السنن الطبيعي ويبدل المذكر بالمؤنث، والمؤنث بالمذكر، ويجعل المفرد جمعاً للنزوع إلى المعاني ورعاية الإعتبارات اللطيفة، ومن أمثلته: قوله تعالى:

- ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي، هذا أكبر﴾.
- ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾.

وأحياناً يوردون المفرد مكان التثنية، ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾. ﴿إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم﴾. والأصل فعميتا، فأفرده لأنهما كشيء واحد، ومثله «الله ورسوله أعلم».

إبدال الشرط والجزاء
وجواب القسم بغير ذلك:

٧ - وأحياناً تقتضي طبيعة الكلام أن يذكر الجزاء في صورة الجزاء، والشرط في صورة الشرط، وجواب القسم في صورة جواب القسم ولكن يتصرف في الكلام فيذكر هذا الجزء - سواء كان جزاء أو شرطاً أو جواباً للقسم - في صورة جملة مستقلة مستأنفة ويكون الميل عند ذلك إلى المعنى وتقوم هناك قرينة تدل على ذلك بوجه من الوجوه.

من أمثلة ذلك قوله تعالى:

- ﴿والنازعات غرقاً * والناشطات نشطاً * والسابحات سبحاً * فالسابقات سبقاً * فالمدبرات أمراً * يوم ترجف الراجفة﴾.

فالمعنى: أن البعث والحشر حق، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾.

- ﴿والسماء ذات البروج * واليوم الموعـود * وشاهـد ومشهود * قتـل أصحاب الأخدود﴾.

المعنى: أن المجازاة على الأعمال حق.

- ﴿إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت * وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت * وأذنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح﴾ الآية.

المعنى: أن الحساب والجزاء كائن.

إبدال الخطاب بالغيبة:

٨ ـ وأحيـاناً يقلبـون أسلوب الكـلام فيكـون الأسلوب ـ مثـلا ـ يقتضي الخطاب، فيأتون بالغائب لمعان مرعية، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾.

إبدال الإخبار بالإنشاء:

ويأتون أحياناً بالجملة الإنشائية مكان الخبرية. ومن أمثلته، قوله تعالى:

- ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أي لتمشوا.
- ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي: إيمانكم يقتضي هذا.
- ﴿ومن أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل﴾، المعنى: على قياس حال ابن آدم كتبنا أو على مثال حال ابن آدم، فابدل منه ﴿... من أجل ذلك﴾ لأن القياس لا يكون إلا بملاحظة العلة، فكأن القياس نوع من التعليل.
- ﴿أرأيت﴾ هو في الأصل استفهام من الرؤية، ولكن نقل هنا إلى معنى التنبيه أو شد الانتباه إلى الكلام التالي مثل ما يقال: ترى شيئاً؟ تسمع شيئاً؟!.

التقديم والتأخير والتعلق البعيد:

من الأشياء التي تسبب الصعوبة في فهم الكلام التقديم والتأخير كما هو في هذا البيت المشهور:

بثينـة شـأنها سلبـت فـؤادي بـلا جـرم أتيت بـه سـلامـاً

والتعلق بالبعيد أيضاً مما يسبب الصعوبة في الكلام. ومن الأمثلة التي تتعلق بهذا القبيل.

- ﴿إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته﴾، أدخل الإستثناء على الإستثناء فصعب.
- ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾. متصل بقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾.
- ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ أي: يدعو من ضره.
- ﴿لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ أي: لتنوء العصبة بها.
- ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ أي: اغسلوا أرجلكم.
- ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ أي: ولو لا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان لزاماً.
- ﴿إن لا تفعلوه تكن فتنة﴾ متصل بقوله تعالى ﴿فعليكم النصر...﴾.
- ﴿إلا قول إبراهيم﴾ متصل بقوله: ﴿وكانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾ الآية.
- ﴿يسئلونك كأنك حفي عنها﴾ أي: يسألونك عنها كأنك حفي.

الزيادة في الكلام:

والزيادة على السنن الطبيعي المعروف في الكلام أيضاً تنقسم إلى عدة أقسام:

الزيادة بصفة:

فتارة تكون بصفة من الصفات، مثل قوله تعالى:
- ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾.
- ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً﴾.

الزيادة بإبدال:

وتارة تكون الزيادة بالإبدال في الكلام، كقوله تعالى: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾.

الزيادة بالعطف التفسيري:

وتارة بالعطف التفسيري كقوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾.

الزيادة بالتكرار:

وتارة بالتكرار كقوله تعالى:

- ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾.
- ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾.
- ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله﴾.
- ﴿يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾.

أي هي مواقيت للناس باعتبار أن الله تعالى شرع لهم التوقيت بها، والحج باعتبار أن التوقيت بها حاصل للحج. ولو قيل: هي مواقيت للناس في حجهم كان أخصر، ولكن أطنب لمراعاة المعاني المقصودة.

- ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع﴾.

أي: تنذر أم القرى يوم الجمع.

- ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾.

أي: ترى الجبال جامدة، أدخل الحسبان لأن الرؤية تجيء لمعانٍ، والمراد بها معنى الحسبان.

- ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

أدخل ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾ في تضاعيف الكلام المنتظم بعضه ببعض بياناً لضمير ﴿اختلفوا﴾ وإيذاناً بأن المراد من الاختلاف ههنا هو الاختلاف الواقع في أمة الدعوة بعد نزول الكتاب بأن آمن بعض وكفر بعض.

زيادة حرف الجر:

وأحياناً يزاد حرف الجر على رأس الفاعل أو المفعول، ويجعل ذلك معمولاً للفعل بواسطة حرف الجر لتأكيد الاتصال، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

- ﴿يوم يحمى عليها﴾ أي هي: الذهب والفضة التي يكنزونها.
- ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم﴾ أي: قفيناهم بعيسى ابن مريم.

واو الاتصال:

وينبغي أن يُعلم هنا نكتة لطيفة، وهي أن الواو في المواضع الكثيرة تأتي لتأكيد الاتصال لا للعطف، مثل قوله تعالى:

- ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾.
- ﴿حتى إذا جاوؤها وفتحت أبوابها﴾.
- ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾.

فاء الاتصال:

كذلك الفاء تكون أيضاً زائدة لتأكيد الاتصال، قال القسطلاني في شرح كتاب الحج في «باب المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج هل يجزيه من طواف الوداع»: ويجوز توسط العاطف بين الصفة والموصوف لتأكيد لصوقها بالموصوف نحو: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ قال سيبويه: «هو مثل مررت بزيد وصاحبك» إذا أردت بصاحبك زيداً، وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: «جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب».

انتشار الضمائر وإرادة المعنيين بكلمة واحدة:

وأحياناً يكون انتشار الضمائر وإرادة معنيين أو أكثر بكلمة واحدة سبباً من أسباب الصعوبة في فهم الكلام، وفيما يلي أمثلته:

- ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ يعني: أن الشياطين ليصدون الناس عن السبيل ويحسب الناس أنهم مهتدون.
- ﴿وقال قرينه﴾ في موضع واحد المراد به الشيطان، وفي الموضع الآخر الملك.
- ﴿يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير﴾.

- ﴿ويسئلونك ماذا ينفقون، قل العفو﴾.

فالأول معناه: أي إنفاق ينفقون، وهو صادق بالسؤال عن المصرف لأن الإنفاق يصير باعتبار المصارف أنواعاً والثاني معناه: أي مال ينفقون.

معاني «جعل وشيء»:

ومن هذا القبيل مجيىء لفظ «جعل» و«شيء» وأمثالهما من الألفاظ لمعان شتى.

- فتارة تأتي «جعل» بمعنى خلق كقوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾.
- وتارة بمعنى اعتقد كما في قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾.

وأما كلمة «شيء» فتأتي أحياناً مكان الفاعل، وأحياناً مكان المفعول به. وتارة مكان المفعول المطلق وغير ذلك، وأمثلته كما يلي:

- ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾ أي: من غير خالق.
- ﴿فلا تسألني عن شيء﴾ أي: عن شيء مما يتوقف فيه من أمرى.

الأمر والنبأ والخطب:

ويراد بالأمر والنبأ والخطب أحياناً المخبر عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وهو نبأ عظيم﴾ أي قصة عجيبة.

معاني الخير والشر:

كذلك كلمتا الخير والشر وما يأتي في معناهما يختلف المراد منهما حسب اختلاف المحال والمواضع.

التقديم والتأخير في الآيات:

ومن هذا القبيل التقديم والتأخير في الآيات الكريمة، فيكون محل آية - مثلاً - في آخر القصة المذكورة فيبادر إليها أحياناً، وتورد قبل إكمال حلقات القصة، ثم تكون العودة إلى القصة وتكمل فصولها وحلقاتها.

وأحياناً تكون الآية الكريمة متقدمة في النزول، ولكنها متأخرة في التلاوة مثل قوله تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ متقدم نزولاً، وقوله تعالى:

﴿سيقـول السفهاء من الناس﴾ إلخ متأخر نزولاً، لكنها في التلاوة بالعكس.

وتارة يورد الجواب في تضاعيف حكاية أقوال الكفار واعتراضاتهم كقـوله تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾.

أو بالجملة فإن هذه المباحث تحتاج إلى تفصيل كثير، وفيما قلناه كفاية، وإذا كان القراء الكرام يستحضرون هذه الأمور ويحفظونها فإنهم لدى تلاوتهم للقرآن الكريم يدركون ـ بأدنى تأمل ونظر ـ غرض الكلام ومغزاه، ويقيسون غير المذكور على المذكور، وينتقلون من مثال إلى أمثلة أخرى كثيرة والله هو الموفق.

الفصل الخامس

في المحكم والمتشابه والكناية والتعريض والمجاز العقلي

تعريف المحكم:

لِيُعلم أن المحكم هو ما لا يدرك منه أهل اللغة إلا معنى واحداً.

إدراك العرب الأولين

لا إدراك اللغويين المتفلسفين:

والمعتبر هو إدراك العرب الأولين لا إدراك المتفلسفين في عصرنا الذين يشقون الشعرة، فإن شق الشعرة في غير محلها داء عضال، يجعل المحكم متشابهاً والمعلوم مجهولاً.

تعريف المتشابه ووجوهه:

والمتشابه هو ما احتمل معنيين إما لسبب:

- احتمال رجوع الضمير إلى مرجعين، مثل أن يقول شخص: «أما إن الأمير أمرني أن ألعن فلاناً، لعنه الله»، فيحتمل أن يرجع الضمير إلى الأمير أو إلى فلان.
- أو لاشتراك الكلمة في معنيين مثل كلمة «لامستم» تأتي بمعنى الجماع واللمس باليد أيضاً.
- أو لاحتمال العطف على القريب والبعيد، مثل قوله تعالى ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ في قراءة الكسر.
- أو لاحتمال العطف والاستيناف، كما في قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون﴾ الآية.

تعريف الكناية وأمثلته:

والكناية هي أن يُثبت المتكلم أمراً، ولا يقصد ثبوت ذلك الأمر بعينه، بل القصد أن ينتقل ذهن المخاطب إلى لازم معناه، سواء كان لزوماً عادياً أو عقلياً، مثل قولهم: «عظيم الرماد» يراد به معنى الجود والسخاء.

تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة:

وتصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة أيضاً من هذا القبيل، وهو باب واسع في شعر العرب وخطبهم، ويزخر بأمثلته القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿واجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ فجاء التشبيه للشيطان هنا بمقدّم قطاع الطرق ورئيسهم، حيث يأمر أصحابه ويناديهم، أن احملوا على الجهة الفلانية، وتقدموا من الجهة الفلانية.

- ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾.
- ﴿وجعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾. فقد شبّه هنا إعراضهم عن تدبر آيات الله ـ عز وجل ـ بشخص طُوّق بالأغلال، أو أقيمت في كل جهة من جهاته السدود فلم يعد قادراً أصلاً على الرؤية والنظر.
- ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾. أي اجمع خاطرك، ودع اضطراب الخواطر وقلق البال.

البيان بالإشارة الحسية:

ونظير ذلك ما يعرف في مخاطبات الناس من أن أحدهم إذا أراد تصوير شجاعة شخص من الأشخاص فإنه يشير إلى السيف وأنه يضرب بها هكذا وهكذا، يخطر بيده، وليس الغرض من هذا التصوير إلا ذكر أنه يفوق جميع الناس في صفة الشجاعة ولو لم يكن قد أخذ السيف بيده مرة في حياته.

أو يقول: فلان يتحدى العالم، ويقول: أنا لا أرى على الأرض أحداً يستطيع أن يبارزني، أو أن فلاناً يفعل كذا وكذا ويشير إلى الهيئة التي تكون للمبارزين عند المبالغة والتمكن من العدو، ولو لم يكن هذا الشخص الموصوف قد قال شيئاً من ذلك أو أتى بعمل من هذه الأعمال.

أو يقولون: فلان ألجمني أو أخرس لساني أو نزع اللقمة من فمي، وأمثال هذه التعبيرات التي كلها من قبيل تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة.

تعريف التعريض:

وأما التعريض، فإنه ذكر حكم عام أو منكّر مع القصد إلى الإشارة والتعريض بحال شخص خاص، أو التنبيه إلى حال شخص معين، وترد بعض خصوصيات ذلك الشخص في الكلام، بحيث تعرف المخاطب به وتكشفه له، وينبغي في مثل هذه المواضع أن يكون قارىء القرآن الكريم متيقظاً فطناً، ويحتاج إلى القصة أيضاً.

وقد كان النبي ﷺ إذا أراد التعريض بشخص والإنكار عليه كان يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا».

ومن القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ في هذه الآية الكريمة تعريض بزينب وأخيها.

وقال تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾ الآية، فيه تعريض بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي مثل هذه الصور لا يدرك معنى الآية تماماً إلا بالإطلاع على القصة المتعلقة وسبب النزول للآية.

تعريف المجاز العقلي:

والمجاز العقلي هو أن يسند فعل إلى غير فاعله، أو يجعل ما ليس من المفعول به مفعولاً به لعلاقة مشابهة ما من المشابهات بينهما أو لأي علاقة من العلاقات، ويدّعي المتكلم أنه داخل في عداد ذلك وأنه فرد من أفراد ذلك الجنس.

وهو مثل ما يقولون: بنى الأمير القصر، مع أن الباني هم البناؤون لا الأمير، أو يقولون: «أنبت الربيع البقل» مع أن المنبت هو الله، أنبته في فصل الربيع، والله أعلم.

الباب الثالث

في أسلوب القرآن البديع

الفصل الأول

في ترتيب القرآن الكريم وأسلوب السور فيه

لم ينزل القرآن الكريم على منهج المتون المبوبة والمفصلة حتى يكون كل موضوع فيه يختص بباب من الأبواب أو فصل من الفصول. بل افترض القرآن الكريم كمجموعة الرسائل والفرامين التي يوجهها الملوك والسلاطين إلى رعاياهم حسب مقتضات الأحوال ومتطلبات الظروف، يوجهون واحدة ثم أخرى فثالثة فرابعة، وهلم جراً، حتى تجتمع نماذج كثيرة من هذه الفرامين، فيقوم شخص بتدوينها، وترتيب مجموعة لها.

وهكذا المالك على الإطلاق ـ جل ثناؤه ـ أنزل على نبيه المصطفى ﷺ لهداية عباده وإرشادهم حسب مقتضيات الأحوال والظروف سورة بعد سورة، وقد كانت كل سورة من هذه السور في عهد النبي ﷺ محفوظة مضبوطة مكتوبة ولكن هذه السور لم تكن مدوّنة مجموعة.

ثم دونت وجمعت هذه السور كلها في مجلد واحد بترتيب خاص في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وسُمّي هذا المجموع بالمصحف.

تقسيم السور:

وكانت هذه السور مقسومة عند الصحابة رضي الله عنهم إلى أربعة أقسام:

الأول: السبع الطوال.

الثاني: المئين، وهي السور التي تشتمل كل واحدة منها على مائة آية أو أكثر بقليل.

الثالث: المثاني، وهي ما تقل آياتها عن المئة.

الرابع: المفصل.

وقد أدخلت سورتان أو ثلاث هي من عداد المثاني في المئين نظراً إلى المناسبة في سياقها بسياق المئين، وهكذا جرى بعض التصرف في بعض الأقسام الأخرى.

وقد انتسخ عثمان بن عفان رضي الله عنه عدة نسخ من ذلك المصحف المدون، وأرسلها إلى الأفاق حتى يستفاد من هذه المصاحف بعينها ويرجع إليها ولا يرجع إلى أي ترتيب غير ترتيبها.

استهلال السور واختتامها على طريقة فرامين الملوك:

وبما أن أسلوب السور يناسب ـ تماماً ـ أسلوب فرامين الملوك والسلاطين، فقد روعي فيه عند بداية السور ونهايتها طريقة الرسائل والفرامين السلطانية.

فكما أن بعض الرسائل تبدأ بحمد الله تعالى والثناء عليه، وبعضها ببيان الغرض المقصود، وبعضها ببيان اسم المرسِل، والمرسَل إليه، وبعضها تكون رسائل وخطابات صغيرة بغير عنوان وتمهيد، وبعض الرسائل تكون مطولة وأخرى مختصرة، كذلك الرب تبارك وتعالى استهل بعض السور بحمده وتسبيحه وبعضها ببيان الغرض من التنزيل، كما قال تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ الآية.

وهذا القسم من السور يشبه استهلالها استهلال الوثائق والمعاهدات حيث يقولون: «هذا ما صالح عليه فلان وفلان» «هذا ما أوصى به فلان». وقد كتب النبي ﷺ في صلح الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد ﷺ».

واستهل بعضها بذكر المرسل والمرسل إليه، كما قال تعالى:
- ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾.
- كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾. وهذا القسم يشبه الفرامين التي يكتب فيها «هذا ما صدر من الباب العالي» أو «إعلام صادر من حضرة الخلافة إلى سكان البلد الفلاني».

وكتب النبي ﷺ: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم».

وابتدأ بعض السور على طريقة الرسائل والخطابات المختصرة من دون عنوان وتمهيد، كقوله تعالى:
- ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾.
- ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾.
- ﴿ويا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾.

اختيار طريق القصائد في مبتدأ بعض السور:

بما أن أبرز فصاحة العرب وقدرتهم البيانية كانت تتجلى في القصائد، وكان بدؤ القصائد بالتشبيب وبذكر المواضع العجيبة والوقائع الهائلة هو من عادتهم القديمة وأسلوبهم المعروف، فقد اختار القرآن الكريم هذا الأسلوب في بعض السور كما في قوله تعالى: ﴿والصافات صفاً * فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً﴾، ﴿والذاريات ذرواً * فالحاملات وقراً﴾، ﴿إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت﴾.

أسلوب خواتم السور:

وكما أن السلاطين يختمون رسائلهم وفرامينهم بجوامع الكلم ونوادر الوصايا والتأكيد على التمسك بالأوامر المذكورة والتهديد لكل من يخالفها ويخرج عنها، كذلك الله تبارك وتعالى ختم أواخر السور بجوامع الكلم ومنابع الحكم، والتأكيد البليغ والتهديد العظيم.

تخلل الحمد والتسبيح في أثناء مواضيع السور:

وتارة يبدأ في أثناء السورة بكلام بليغ عظيم الفائدة، بديع الأسلوب بنوع

من أنواع الحمد لله تعالى والتسبيح له، أو بيان النعم والمنن على عباده مثل ما بدأ بيان تباين المراتب والدرجات بين الخالق جل وعلا والمخلوق العاجز الفقير بقوله: ﴿قل الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أما يشركون﴾. ثم بين هذا الموضوع في الآيات الخمسة التالية بأبلغ الطرق وأبدع الأساليب البيانية. كذلك بدأ المحاجة مع بني إسرائيل في أثناء سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿يـا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ ثم ختم هذه المحاجة بهذا الكلام نفسه عند آخر الجزء: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي﴾ إلخ الآية.

وإن ابتداء هذه المحاجة بهذا الكلام وانتهاءها به أيضاً يحتل مكاناً عظيماً في البلاغة.

وهكذا بدأ الجدل مع أهل الكتاب في سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾. حتى يتضح محل النزاع، ويتعين المبحث الأساسي في الجدل ليكون الحوار بعد ذلك فيه ويدور الكلام حوله وينتهي عليه، والله أعلم بحقيقة الحال.

الفصل الثاني

في تقسيم السور إلى الآيات وأسلوبها الفريد

بين الآيات والأبيات:

لقد جرت سنة الله تعالى في السور القرآنية بتقسيمها إلى الآيـات كما أن القصائد تقسم إلى الأبيات، ومعلوم أن هناك فرقاً بين الآيات والأبيات، ثم إن الآيات والأبيات كل واحدة منهما من قبيل النشيد، الذي يقال وينشد لالتذاذ نفس المتكلم والسامع ومتعتهما الفنية، إلا أن الأبيات الشعرية تكون مقيدة بالعروض والقوافي التي دونها الخليل بن أحمد، وتلقاها منه الشعراء وجروا عليها، أما الآيات فإن بناءها على الوزن والقافية الإجمالية التي تشبه الحقيقة الطبيعية لا على أفاعيل العروضيين وتفاعيلهم، والقوافي المحـدودة التي هي شيء صناعي واصـطلاحي ليس غير.

أما تنقيح القدر الإجمالي المشترك الذي يتفق في الآيات والأبيات والـذي استعملنا للإلماح إليه كلمة «النشيد» كقدر مشترك مطلق، ثم ضبط تلك الأمور والخصائص التي التزم بها في الآيات والتي تميزها عن غيرها، فكل ذلك يحتاج إلى تفصيل، والله ولي التوفيق.

وتفصيل هذا الإجمال هو أن الفطرة السليمة تدرك في القصائـد الموزونـة المقفاة والأراجيز الجميلة الرائقة وامثال ذلك من الكلمات الموزونة متعة خاصة، وتتذوق فيها حلاوة وعذوبة.

وإذا تأملت في سبب هذا الإدراك وبحثت عن السر وراء هذا التذوق، تجد أن الكلام إذا كانت أجزاؤه يوافق بعضها بعضاً فإنه ينشىء في نفس المخاطب لذة خاصة ويدعوه إلى انتظار مثله والشوق إليه، فإذا ورد بعد ذلك البيت الثاني - مثلاً - مع ذلك التوافق والانسجام بين أجزائه ووقع موقعه على نفس المخاطب وتحقق الأمر المطلوب المنتظر فإن هذه اللذة تتضاعف، ثم إذا كان البيتان كلاهما يشتملان على قافية واحدة زادت اللذة ثلاثة أضعافها.

فالتمتع والالتذاذ بالأبيات الشعرية بسبب هذا السر الدقيق فطرة قديمة فطر عليها البشر، ولا اختلاف فيها بين الأمزجة والطبائع السليمة لأهل المناطق المعتدلة وكلهم متفقون على ذلك، ثم اختلفت المنازع والمذاهب والأعراف والعادات في توافق الأجزاء في كل بيت من الأبيات وشروط القوافي المشتركة الواردة في أواخر الأبيات.

فالعرب - مثلاً - عندهم ضوابط وأصول بينها الخليل الفراهيدي.

والهنود يجرون على تقاليد وعادات تحكم بها سليقتهم اللغوية الفطرية، وهكذا اختار أهل كل عصر ومصر وضعاً من الأوضاع ومسلكاً من المسالك.

الأمر الجامع المشترك:

وإذا أردنا أن ننتزع من بين هذه العادات والأوضاع والمذاهب والمشارب أمراً جامعاً مشتركاً، وسراً شاملاً دقيقاً فإنه هو التوافق التقديري أو التخميني ليس غير.

فالعرب - مثلاً - يستعملون «مفاعلن» و «مفتعلن» مكان «مستفعلن» ويعتبرون «فعلاتن» و «فاعلتن» وفق القاعدة الصحيحة بدل «فاعلاتن» ويهتمون بموافقة ضرب بيت بضرب بيت آخر وعروض بيت بعروض بيت آخر، ويسمحون في الحشو بكثرة الزحافات بعكس شعراء فارس الذين يستهجنون الزحافات ويكرهونها.

كذلك الشعراء العرب يستحسنون إذا كانت القافية مثلاً في بيت «قبوراً» وفي البيت الآخر «كبيراً» بالعكس من الشعراء العجم. وهكذا يرى الشعراء

العرب أن «حاصل»و «داخل» و «نازل» من قسم واحد بخلاف الشعراء العجم.

وكذلك وقوع كلمة واحدة بين شطري البيت بحيث يكون نصفها في الشطر الأول والنصف الآخر في الشطر الثاني صحيح عند العرب خطأ عند العجم.

وبالجملة فإن الأمر الجامع المشترك هو التوافق التقريبي التقديري لا التوافق الحقيقي.

وقد وضع الهنود أوزان شعرهم على عدد الحروف من دون ملاحظة واعتبار للحركات والسكنات، وهي كذلك تمنح لذة ومتعة فنية.

وقد سمعنا ألحان بعض القرويين الريفيين التي يلحنون بها للحصول على المتعة والذوق، وهي ـ في الواقع ـ تشتمل على توافق تقريبي بين أجزاء الكلام، أو تشتمل على رديف يكون عبارة عن كلمة واحدة أو عن تركيب كلمتين أو أكثر، وهم يتغنون بها كالقصائد، ويتمتعون بها.

فالحاصل ـ إذن ـ أن لكل قوم قانوناً وضوابط خاصة لكلامهم المنظوم مع القدر المشترك الذي ألمحنا إليه.

متعة الناس بالأصوات المطربة والأنغام الحلوة:

وعلى هذا تجد جميع أصناف الناس وشعوبهم يجدون متعة ولذة غـريبة في الأصوات والألحان المطربة الجميلة، والنغمات الموسيقية الفاتنة، لا اختلاف بينهم في ذلك، إلا أن طرق تغنيهم وأساليب تلحينهم، وقواعد الغناء عندهم تختلف فيما بينهم.

وقد وضع اليونانيون عدداً من الأوزان لهذه الألحان، ويسمونها «المقامات» وقد استنبطوا من المقامات أصواتاً وأقساماً، واستخرجوا أنغاماً وألحاناً جعلوها فناً مبسوطاً مفصلاً مستقلاً، مع ضبط القواعد والأصول.

كذلك وضع الهنود ستـة ألحان، ثم استخـرجوا منهـا نغمات وتلحينـات متعددة، وقد رأينا أهل الريف منهم الذين لا يعرفون هذين المصطلحين، اخترعوا لهم تركيباً خاصاً ولحناً خاصاً حسب سليقتهم الفطرية وذوقهم الفني، ووضعوا

لأنفسهم أوزاناً من دون أن يضبطوا لها القواعد والكليات، ويستقصوا لها الجزئيات، فينشدونه في نواديهم ومحافلهم ويشيعون فيها العذوبة والمتعة، ويشعلون فيها الحرارة.

بين العقل والذوق:

ونحن ـ عندما ـ ننظر هذه الخلافات ونتأمل فيها لا نخرج بنتيجة إلا أن القدر المشترك بينها هي التوافق التقريبي لا غير، والعقل ينظر إلى هذه الحقيقة الإجمالية والقدر المشترك، ولا همّ له في التفاصيل، والذوق السليم يحب العذوبة الخالصة ولا علاقة له بالبحر الطويل أو المديد.

مراعاة القرآن الكريم لهذا الذوق الإجمالي المشترك:

وحينما شاء الله ـ جلت قدرته ـ أن يخاطب هذا الإنسان المصنوع من قبضة من طين، شاءت قدرته ورحمته أن يراعي هذا الحسن الإجمالي والجمال المشترك، لا تلك القواعد المصطلحة التي يأخذ بها شعب دون شعب، وتميل إليها جماعة دون أخرى. وحين شاءت حكمة الملك القدوس ـ عز شأنه ـ أن يخاطب الناس على قدر كلامهم، كان منه أن ضبط هذا الأصل البسيط والسر المشترك في كلامه، لا تلك القوانين والضوابط التي تتغير حسب تغير الذوق والعصر، والتي لا تستقر على حال واحدة.

والحقيقة ـ التي ينبغي أن يتفطن لها ـ أن مراعاة القوانين الإصطلاحية والتقيد بها إنما هو دليل على العجز والجهل، وأما مراعاة الحسن الإجمالي والقدر المشترك الذي لا يفوت في أي حال من أحوال الكلام، ولا في أي صفة من صفاته، ويرافق الكلام في لينه وشدته، ووهاده ونجاده، من دون إلمام بالقواعد الاصطلاحية، واستعمال للضوابط العرفية إنما هو الإعجاز برأسه، الخارج عن حد الطوق البشري.

ولا شك أن الله جلت قدرته اختار هذه الطريقة المعجزة التي تكل عن إدراكه حقه والصعود إلى مرتقاه قوى البشر أجمعين.

ومن هنا نستنبط قاعدة مهمة، وهي أن الله تبارك وتعالى قد راعى في أكثر

سور كتابه الحميد الجاذبية الصوتية وامتدادها، وجمالها وتأثيرها، لا البحر الطويل والبحر المديد أو غيرهما من البحور الشعرية، واعتبر في الفواصل انقطاع النفس بالمدة، أو ما تستقر المدة عليه، لا قواعد فن القافية، وهذا المبحث يحتاج إلى بسط وتفصيل، واجتزىء هنا بالقدر اليسير فلتتأمل فيما يذكر بالتالي:

اعتبار الامتداد الصوتي هو الوزن في القرآن الكريم:

إن دخول النفس في الحلقوم وخروجه منه أمر طبيعي في الإنسان كما هو أمر طبيعي في كل حيوان، وإن تمديد النفس وتقصيره مما هو في قدرة الإنسان، ولكنه إذا تركه على سجيته وفطرته من دون تمديد وتمطيط أو تقصير، فإن لـه امتداداً خاصاً. والإنسان عندما يبدأ بالتنفس، يجد الخفة والسرور والنشـاط ثم ينقطع النفس شيئاً فشيئاً حتى ينقطع كلياً، ويضـطر الإنسان إلى أخـذ النفس الطازج الجديد.

إن هذا الإمتداد الخاص للنفس الإنساني لا يمكن أن يُحد بحد معين معلوم، بل هو محدد بحد مبهم، ومقدر بمقدار مضطرب بين أفراد البشر قد يختلف بزيادة كلمتين أو ثلاث أو قدر الربع للكلمة والثلث عند شخص وبنقصان كلمتين أو ثلاث أو قدر الربع للكلمة والثلث عند آخر، ولا يخرجه ذلك عن الحد المشترك.

كما يسمح فيه باختلاف عدد الأوتاد والأسباب، وتقديم بعض الأركان على بعض كذلك.

وعلى كل فإن الله سبحانه تعالى قد اعتبر هـذا الامتداد للنفس في حـده المشترك الوسط هو الوزن في كتابه الكريم، وقسمه ثلاثة أقسام.

١ ـ الطويل. ٢ ـ المتوسط. ٣ ـ القصير.

فمن أمثلة الطويل: سورة النساء.

ومن أمثلة المتوسط: سورة الأعراف والأنعام.

ومن أمثلة القصير: سورة الشعراء والدخان.

خاتمة النفس هي القافية:

وجعلت خاتمة النفس المعتمدة على حرف من حروف المدة التي تعتمد على

حرف آخر هي القافية الواسعة النطاق، تدركها الطبيعة البشرية وتتذوقها وتجد في تكرارها اللذة والجمال سواء كانت هذه المدة ألفاً أو واواً أو ياءاً، وسواء كان الحرف التي تعتمد عليها باءاً أو ميماً أو قافاً.

وعلى هذا فإن هذه الفواصل كـ ﴿يعلمون﴾ ﴿مؤمنين﴾ و ﴿مستقيم﴾ كلها متوافقة متلائمة. كذلك ﴿خروج﴾ ﴿مريج﴾ ﴿تحيد﴾ ﴿نار﴾ ﴿فواق﴾ و ﴿عجاب﴾ كلها على قاعدة واحدة.

كذلك لحوق الألف في آخر الكلمة قافية متسعة، ينشيء تكرارها وإعادتها لذة في النفس، مهما كان حرف الروي مختلفاً، مثل ﴿كريماً﴾ في موضع و ﴿حديثاً﴾ في موضع آخر و ﴿بصيراً﴾ في موضع ثالث، كلها على الإنسجام الفطري الجميل.

وإذا التزم ـ في مثل هذه الصور ـ موافقة الروي في كل بيت فإنه من قبيل التزام ما لا يلزم، مثل ما ورد في سورة مريم وسورة الفرقان.

كذلك توافق الآيات الكريمة على حرف كحرف الميم ـ مثلاً ـ في سورة القتال، وحرف النون في سورة الرحمن، يحدث لذة ومتعة عجيبة.

اختلاف فواصل آخر السور من أوائلها:

وأحياناً تختلف فواصل آخر السورة ـ نظراً إلى ذهن السامع وتنشيطاً له واشعاراً له بلطف الكلام وروعته ـ عن فواصل أولها، مثل:

﴿إداً﴾ و ﴿وهداً﴾ في آخر سورة مريم.

ومثل: ﴿سلاماً﴾ و ﴿كراماً﴾ في آخر سورة الفرقان.

ومثل: ﴿طين﴾ و ﴿ساجدين﴾ و ﴿تنظرون﴾ في آخر سورة «ص».

مع أن الفواصل في أوائل هذه السور جاءت مختلفة عنها، كما هو واضح.

وخلاصة الأمر أن مراعاة هذا «الوزن» و«القافية» التي مضى التعبير عنها بالقدر المشترك والمدة المشتركة كانت ذات أهمية معتبرة.

مراعاة الإطناب والتقديم والتأخير والقلب والزيادة:

وإذا وردت في آخر الآية لفظة تصلح لأن تكون قافية، فبها ونعمت، وإلا فيأتي الكلام متصلاً بجملة تشتمل على بيان آلاء الله تعالى، أو على تنبيه للمخاطب مثل:

﴿وهو الحكيم الخبير﴾ ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ ﴿وكان الله بما تعملون خبيراً﴾ ﴿لعلكم تتقون﴾ ﴿إن في ذلك لآيات لأولى الألباب﴾ ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

ويراعى الإطناب - أحياناً - في مثل هذه المواضع حيث يحتاج إلى هذا الوزن مثل: ﴿فسئل به خبيراً﴾.

ويؤتى - أحياناً - بالتقديم والتأخير، وأخرى بالقلب والزيادة، مثل: ﴿الياسين﴾ ﴿وطور سينين﴾.

السر في انسجام الآيات القصيرة مع الطويلة:

وينبغي أن يعلم أن انسجام الكلام وملاءمته وسهولته على لسان القارىء لكونه يحل محل الأمثال السائرة، أو لتكرره في الآية الكريمة يوائم بين الكلام الطويل والكلام القصير، ويحدث بينهما اتزاناً وانسجاماً، فيؤتى تارة بالفقر الأولى من الكلام أقصر وأخصر من الفقر الأخرى، وهو يفيد عذوبة في الكلام ولذة جديدة كقوله تعالى: ﴿خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾.

فكأن المتكلم في مثل هذا الكلام يضمر في نفسه أن الجملة الأولى باجتماعها مع الجملة الثانية في كفة، والجملة الثالثة وحدها في كفة أخرى.

الآيات ذات القوائم الثلاث:

كذلك تكون الآية أحياناً ذات قوائم ثلاث، مثل قوله تعالى ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم﴾ إلخ الآية، ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ إلخ الآية، وعامة القرّاء يجمعون الأولى مع الثانية، ويعدونها آية طويلة.

الآية ذات الفاصلتين:

وأحياناً ترد في الآية الواحدة فاصلتان مثل ما يرد ذلك في البيت أيضاً.

كالزهر في ترف والبـدر في شرف والبحـر في كرم والـدهـر في همم

السر في قصر آية مع طول أخرى:

وتأتي - أحياناً - آية طويلة مع آية قصيرة، والسر في مثل هذه المواضع أنه لو وضع حسن الكلام وجمال التعبير- الذي نشأ من تقارب الوزن ووجـدان الأمر المنتظر المطلوب الذي هو القافية حسبما عرفت بها - في كفة، ووضع حسن الكلام وعذوبة العبارة - الناشئة من سهولة الأداء وسلاسته وموافقة طبع الكلام، وعدم لحوق أي تغير فيه - في كفة أخرى، فإن الفطرة السليمة سوف تميل إلى جانب المعنى وترجيحه فيهمـل لذلـك انتظار شيء وهـو القافية، ويؤدي حق الانتظار والطلب الآخر كاملاً موفوراً وهو الجانب المعنوي.

أساليب متنوعة أخرى في السور:

وما قلنا في مفتتح هذا البحث أن سنة الله تعالى جرت على ذلك في أكثر السور القرآنية، إنما هو لأجل أن بعض السور القرآنية لم يراع فيها هذا النوع من الوزن والقافية. فجاءت طائفة من هذه السور على طريق خطب الخطباء وأمثال البلغاء والحكماء، ولعلك قد سمعت رواية سمر النساء التي روتها عائشة رضي الله عنها ونظرت في قوافيها وجملها.

وجاءت بعض السور الأخرى على طريق رسائل العرب من دون مراعاة شيء آخر، كأنها محـاورة الناس بعضهم لبعض، اللّهم إلا خـواتم الكلام التي جاءت على النمط الذي ترى.

والسر في ذلك، أن أصل لغة العرب يراعى فيها الوقف في الموضع الذي ينتهي عليه النفس من الكلام ويتلاشى النشاط في الامتداد الصوتي، ويستحسن في محل الوقف أن ينتهي النفس على مدة من المدات، ومن هنا جاءت الآيات على هذه الصورة.

هذا ما فتح الله تعالى عليّ في هذا الباب، والله أعلم بالصواب.

الفصل الثالث

في ظاهرة التكرار
في القرآن الكريم

سر تكرار التلاوة:

لو سئلنا: لماذات تكررت مطالب العلوم الخمسة ومباحثها في القرآن العظيم؟ ولِمَ لم يكتف ببيانها في موضع واحد؟

قلنا: إن ما نريد أن نعرض على السامع ونفهمه ينقسم عادة إلى قسمين:

الأول: هو ما لا يكون القصد منه إلا تعليم ما لا يعلم السامع وتلقينه. فيكون المخاطب ـ مثلاً ـ لا يدري حكماً من الأحكام، ولم يدركه عقله وفكره، فأنت تفيده ذلك الحكم، فيصبح المجهول عنده باستماع كلامك معلوماً، ويعرف ما تريد.

الثاني: أن يكون الغرض هو استحضار صورة العلم في قوته المدركة حتى يجد لها لذة موفورة، وتفنى جميع قواه القلبية والعقلية في ذلك المعلوم، وتنصبغ به جميع قواه الفكرية والعلمية، كما نكرر بيتاً من الشعر علمنا معناه ومحتواه سلفاً، ولكننا رغم ذلك نكرره ونجد كل مرة في انشاده لذة جديدة، ونحب ترداده وتكراره لأجل هذه اللذة الذوقية.

وإن القرآن العظيم بالنسبة إلى كل واحد من مباحث العلوم الخمسة، أراد إفادة القسمين المذكورين، فأراد تعليم ما لا يعلم بالنسبة إلى الجاهل، وأراد انصباغ النفوس بصبغة هذه المعلومات بتكرارها وتردادها بالنسبة إلى العالم، اللهم

إلا أكثر مباحث الأحكام التي لم يقع فيها هذا التكرار إذ أن افادة القسم الثاني لم تكن مطلوبة فيها.

ولأجل ذلك أمرنا بتكرار التلاوة والإكثار منها، ولم يكتف بمجرد الفهم والإدراك.

تنوع الأساليب مع التكرار في المطالب:

وقد روعي ـ مع ذلك ـ هذا القدر من الفرق إذ أن المطالب التي تكررت جاءت كل مرة بعبارة طرية جديدة وأسلوب جديد، حتى يكون له وقع أكثر في النفوس وأمتع للأذهان والعقول، فلو كان التكرار مع اتحاد الألفاظ والعبارات لكان شيئاً من حقه أن يكرر ويردد فحسب، ولكنه مع اختلاف التعابير وتنوع الأساليب مدعاة للتفكير وخوض العقل واستجماع الخاطر.

الفصل الرابع

في ترتيب
مباحث القرآن الكريم

حكمة الدعوة والعرض:

لو أثار أحد السؤال: لماذا لم يراع الترتيب في بيان مباحث القرآن العظيم ولماذا نثرت هكذا نثراً؟ فلماذا لم يُبدأ ـ مثلاً ـ ببيان آلاء الله تعالى،حتى إذا استوفاها حقها شرع في بيان أيام الله تعالى، فإذا أتمها وأكملها بدأ بالجدل مع الكفار وغيرهم؟ . . .

فنقول: إن قدرة الله تبارك وتعالى وإن كانت محيطة بجميع الممكنات، ولكن القول الفصل في هذا الباب إنما هو للحكمة ـ إذ أنه كتاب حكيم من لدن حكيم خبير ـ، والحكمة هي موافقة المبعوث إليهم في اللسان وأسلوب البيان، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة في قوله تعالى: ﴿لقالوا ءأعجمي وعربي﴾ إلخ الآية. ولم يكن لدى العرب إلى حين نزول القرآن الحكيم كتاب، لا كتاب إلهي ولا كتاب بشري.

أسلوب الأولين لا اختراع المصنفين المتأخرين:

وإن الترتيب الذي اخترعه المؤلفون والمصنفون المتأخرون لم يكن يعرفه العرب الأولون، وإذا كنت في شك من هذا فارجع إلى قصائد الشعراء المخضرمين، واقرأ رسائل النبي الكريم ﷺ ورسائل سيدنا عمر بن الخطاب

رضي الله عنه حتى تنكشف لك هذه الحقيقة جلية واضحة، فلو جاء الكلام على غير ما كانوا يعهدونه من طرائق البيان، لوقعوا في الحيرة، وواجههم شيء لا يألفونه ولا يأنسون به، وشوش عقولهم وأقلق خاطرهم.

ثم إن الغرض ليس مجرد إفادة ما لا يعلمونه، بل إفادته مع التكرار والاستحضار مرة بعد مرة، ويتوفر هذا المعنى في غير المرتب أكثر من توفره في المرتب من الكلام وهذا على طريقة المتون الكتابية.

وجه اختيار الأوزان والقوافي الجديدة:

ولو سئلنا: لماذا لم يختر القرآن الكريم تلك الأوزان والقوافي التي تعرف لدى الشعراء وهي أحلى وألذ؟ لقلنا: إن اللذة والحلاوة أمر نسبي، يختلف باختلاف الشعوب والبلدان والعقول والأذواق، ولو سلمنا ـ جدلاً ـ أن تلك أحلى وألذ، فإن إبداع أسلوب جديد ونموذج جديد من الأوزان والقوافي على لسان الرسول الكريم ﷺ الذي كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب، آية ظاهرة من الآيات الدالة على نبوته ورسالته، ولو كان القرآن قد نزل على أوزان الشعر وقوافيه المعروفة لذهبت بالكفار الظنون إلى أنه شعر من شعرهم المتداول المعروف، ولم يعيروه كبير اهتمام ولم يبالوا به.

ومعلوم أن البلغاء من الشعراء المفلقين والكتاب المجيدين حين يحاولون إبراز مزيتهم وفضلهم ورجحانهم على أقرانهم ومعاصريهم على رؤوس الأشهاد يأتون بصناعة جديدة، ويستنبطون بحوراً جديدة، ويقولون عند ذلك: هل هنالك من يقرض القصيد مثلي، وينشيء الكلام على حذوي؟ فلو جرى هؤلاء على الطريقة المطروقة في الشعر والنثر لم تظهر براعتهم إلا للمحققين البارعين.

الفصل الخامس

في وجوه الإعجاز
في القرآن الكريم

كثرة وجوه الاعجاز في القرآن الكريم:

لـو سئلنا: ما هو وجه الاعجاز في القرآن الكريم؟.

نقول: الذي تحقق عندنا أن وجوه الاعجاز في القرآن كثيرة.

إعجاز الأسلوب:

منها الأسلوب المعجِز البديع، ولقد كانت للعرب عدة ميادين يُركضون فيها جواد بلاغتهم وبيانهم، ويتسابقون فيها مع أقرانهم وهي القصائد، والخطب، والرسائل، والمحاورات، ولم يكونوا يعرفون غير أساليب هذه الأصناف الأربعة، ولا كانت عندهم قدرة على إبداع غيرها من الأساليب، فكان إبداع أسلوب جديد يختلف عن أساليبهم على لسان نبي أمي عليه أفضل الصلاة والسلام إعجازاً قائماً برأسه.

إعجاز الإخبار عن الكتب السابقة:

وكـان من هذه الوجوه إخبار القرآن الكريم عن القصص الماضية وأحكام الشرائع السابقة على وجه يصدق الكتب السابقة ويهيمن عليها من دون أخذ عنها وتعلم منها.

إعجاز الإخبار عن الأحداث الآتية:

ومنـها إخباره عن الأوضاع والأحداث الآتية، التي كلما ظهر منها شيء وفق

ما جاء في القرآن كان دليلاً جديداً على إعجازه.

إعجاز البلاغة العالية:

ومن هـذه الوجوه تلك الذروة السامقة من البلاغة القرآنية التي تعلو على قدرة البشر وتخرج عن طوقه، ونحن إذ نشأنا بعد العرب الأولين لا نستطيـع أن نصل إلى كنه هذه البلاغة وحقيقتها، إلا أن القدْر الذي نعلمه هو أن استعمال الكلمات والتراكيب العذبة الجزلة التي وردت في القرآن الكريم ـ بما تمتاز به من لطف وجمال وعـدم كلفة وصنعـة ـ لا نجد شيئـاً منها في أي قصيـدة من قصائـد المتقدمـين والمتأخرين،وهذا أمر ذوقي لا يدركه ـ كما ينبغي ـ إلا المهرة المفلقون من الشعراء، وليس في وسع العامة أن يتذوقوه.

ومن المعلوم كذلك أن القرآن الكريم في موضوع التذكير بآلاء الله وأيامه، والجدل، يكسو المعاني المتقاربة في كل موضع لباساً جديداً حسب أسلوب السورة التي تعرض فيها في جمال وطرافة لا تستطيع أن تتطاول إليها أعناق البشر.

تنوع الأساليب البيانية:

وإذا تعسر على أحد إدراك ذلك، فعليه أن يتأمل في أساليب قصص الأنبياء والمرسلين في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعـراء، ثم ليرجـع إلى هذه القصص في سورة الصافات، ثم ليقرأ هذه القصص نفسها في سورة الذاريات يتجلى له الفرق كوضح النهار.

كذلك ورد ذكر ما يتعلق بتعذيب العصاة الظالمين والانعام على المـطيعين الصالحين بلون جديد في كل موضع من مواضع ذكره في القرآن الكريم، وهكذا جاء تخاصم أهل النار بعضهم مع بعض في صور جديدة وأساليب متنوعة في كل مكان، والكلام في هذا يطول.

ونعلم كذلك أن مـراعاة مقتضى الحـال الذي يتكفل فن المعاني بتفصيله والحديث عنه، واستعمال الإستعـارات والكنايات التي يحتوي عليها فن البيان، مع مراعاة حال المخاطبين الأميين الذين يجهلون هذه الصناعات، قد توفرت في القرآن الكريم وتحققت بوجه لا يتصور أحسن منها وأروع، وذلك أن المطلوب في

القرآن الكريم هو أن تودع بعض اللطائف البيانية التي لا تستعصي على العامة ويتذوقها الخاصة في تضاعيف المخاطبات المعروفة والحوار العام، وهذا هو نوع من الجمع بين النقيضين الذي لا يتيسر مثله لأي واحد من البشر.

إعجاز التشريع القرآني:

ومن وجوه الاعجاز القرآني ما لا يتيسر فهمه إلا للمتدبرين المتأملين في أسرار الشرائع ودقائقها، وذلك أن هذه العلوم الخمسة ـ من جهة أنها لهداية النوع البشري وإرشاده ـ حجة قائمة بذاتها على أن هذا الكلام منزل من عند الله الحكيم العليم، كما أن طبيباً حاذقاً لو نظر مثلاً في القانون لابن سينا، وتأمل في بيانه لأسباب الأمراض وعلاماتها ووصفه لأدويتها وعلاجها، لما اعتراه أدنى شك في أن مؤلف هذا الكتاب من كبار الأطباء الحاذقين في صناعة الطب، كذلك العالم بأسرار الشرائع الذي يعرف ما هي الأشياء التي يمكن تعليمها وتلقينها للناس لتهذيب نفوسهم واصلاح قلوبهم، ثم يتأمل في هذه العلوم الخمسة التي اشتمل عليها القرآن الحكيم لعلم العلم اليقين أن هذه العلوم قد وردت بمعانيها ومطالبها في القرآن على وجه لا يتصور أفضل منه ولا أدنى ولا أجمل، وعلى كل فإن الشمس الساطعة دليل من نفسها على نفسها فإذا كنت في حاجة إلى الدليل فلا تشح بوجهك عنها.

الباب الرابع

في بيان فنون التفسير
وحل الخلافات الواقعة
في تفاسير الصحابة والتابعين

الفصل الأول

في أصناف المفسرين ومناهج تفسيرهم

ليعلم أن المفسرين ينقسمون إلى عدة أصناف:

تفسير المحدِّثين:

فمنهم طائفة قصدوا إلى رواية الآثار المتعلقة بالآيات الكريمة سواء كان ذلك حديثاً مرفوعاً، أو موقوفاً، أو مقطوعاً أو خبراً إسرائيلياً، وهذا طريق المحدثين.

تفسير المتكلمين:

وطائفة تناولوا آيات الصفات وأسماء الله تعالى بالتأويل، فما لم يوافق منها - في ظاهرها - مذهب التنزيه، صرفوها عن ظاهرها، وردوا على تعلق المخالفين ببعض الآيات ونقضوا تمسكهم بها، وهذا هو منهج المتكلمين.

تفسير الفقهاء الأصوليين:

وطائفة صرفت عنايتها إلى استنباط الأحكام الفقهية وترجيح بعض

المجتهدات على بعض، والجواب عن تمسك المخالفين بـالأدلة الأخـرى، وهذا طريق الفقهاء الأصوليين.

تفسير النحاة اللغويين:

وطائفة اشتغلت ببيان لغة القرآن وإعرابه وجمله ومفرداته، وأوردوا الشواهد الكثيرة من كلام العرب في كل باب من الأبواب، وهذا مذهب النحاة اللغويين.

تفسير الأدباء البارعين:

وتوجهت جماعة إلى إشباع الكلام في اللطائف والنكات من المعاني والبيان، وأوفوا الكلام حقه وجاؤواء بآيات البلاغة وروائع البيان، وهذا هو مسلك الأدباء البارعين.

تفسير القراء الماهرين:

واهتم بعضهم برواية القراءات المأثورة عن شيوخهم في القرآن الكريم، ولم يدعوا دقيقـاً ولا جليلاً في هـذا الباب إلا جـاؤوا به، وهـذه هي صفة القـراء الماهرين.

تفسير الصوفية المتنسكين:

واعتنى رجال ببيان لطائف علم السلوك وعلم الحقائق بأدنى مناسبة لغوية بالآيات الكريمة، وهذا هو مشرب الصوفية المتنسكين.

وبالجملة فإنه مجال واسع، وقصد كل مسلم يتعلق بتفهيم معاني القـرآن الكريم ومطالبه، وقد خـاض كل منهم في فن من الفنـون أو علم من العلوم، وتكلم على قدر قوته البيانية وفصاحته اللغوية، وراعى مذاهب أصحابه واتخذه نصب عينه، ومن هنا اتسع مجال التفسير اتساعـاً لا يحد قـدره بحد صحيـح، واشتمل على كتب لا يحصر عددها ولا يحصى.

وقد توجهت طائفة من المفسرين إلى هذه المقاصد كلها في تفاسيرهم فمنهم من اختـار اللغة العـربية ومنهم من اختـار اللغة الفـارسيـة ونحـا بعضهم نحو الاختصار، وأحب بعضهم التطويـل والاطناب، ووسعـوا أذيال العلم وفـرعوا حواشيه.

وقد أُعطي هذا الفقير حظه من هذه العلوم والفنون كلها، وأحاط بمعظم أصولها وجملة صالحة من فروعها، وحاز على نوع من التحقيق والاستقلال في كل باب من أبوابها بوجه يشبه «الاجتهاد في المذهب» على اصطلاح الأصوليين، وفنّان آخران أو ثلاثة من فنون التفسير ألقيت في خاطري من بحر الجود الإلهي، فلو سألتني فأنا تلميذ القرآن العظيم بلا واسطة كما أني أويسى الروح النبوية ـ على صاحبها ألف ألف سلام وتحية ـ ومستفيد بلا واسطة من الكعبة الحسناء ومتأثر بدونها بالصلاة العظمى[1].

ولـو أن لي في كـل منبت شعــرة   لسـاناً لمـا استوفيت واجب حمـده

ورأيت من اللازم أن أورد في هذه الرسالة كلمتين أو ثلاثاً عن كل فن من هذه الفنون.

---

(١) لا ندري حقيقة هذه الأشياء، ولا ندري ما المراد بها عند المؤلف ونحن نحسن الظن به، إلا أن هذه الأشياء ذوقية وجدانية قد تكون موهمة فكان الأولى أن لا يذكر ما يوهم القراء ولا يتضح لهم معناه، والعلم عند الله.

الفصل الثاني

في بيان الآثار المروية في تفاسير أصحاب الحديث من المفسرين وما يتعلق بها من مهمات

قسمان من أسباب النزول:

إن من الروايات والآثار المروية في كتب التفسير التي ألفها أصحاب الحديث من المفسرين، ما يشتمل على بيان أسباب النزول، وأسباب النزول تنقسم إلى قسمين:

الأول: أن يقع حادث يمحص به إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين كما وقع ذلك في غزوتي أحد والأحزاب، ويُنزل الله تعالى ما يمدح المؤمنين ويذم المنافقين ليكون خطّاً فاصلاً وفارقاً مميزاً بين الفريقين، وتقع في أثناء ذكر القرآن الكريم هذا الحادث ووصف الفريقين، تعريضات كثيرة بخصوصيات الحادث ومتعلقاته، فلا بد إذن أن تشرح قصة هذا الحادث بصورة مختصرة حتى يتضح للقارىء سياق الحادث وخلفياته.

الثاني: أن يكون معنى الآية مستقلاً تاماً بعموم صيغتها من دون حاجة إلى معرفة تلك القصة، أو الإلمام بالحادث الذي كان سبباً للنزول، «والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

وقد ينقل المتقدمون من المفسرين في مثل هذه المواضع أمثال هذه القصص والحوادث بغية استيعاب الآثار المناسبة الواردة حول تلك الآية، أو لبيان ما يصدق

عليه العموم اللفظي من المعاني وليس من الضروري ذكر هذه القصص والحوادث كأسباب النزول، لأن فهم معنى الآية لا يتوقف عليها.

المراد بقولهم «نزلت في كذا»:

وقد تحقق لدى الفقير أن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين كثيراً ما يقولون: «نزلت الآية في كذا» ولا يكون غرضهم إلا تصوير ما تصدق عليه الآية من الأحداث والمعاني، وذكر بعض القصص والوقائع التي تشملها الآية الكريمة لعموم لفظها، سواء كانت القصة متقدمة على نزول الآية أو متأخرة عنها، إسرائيلية كانت أو جاهلية، أو إسلامية تنطبق على جميع قيود الآية أو بعضها. والله أعلم.

القسم الثاني من أسباب النزول أمر اجتهادي:

وقد تبين من هنا أن للاجتهاد مدخلاً في هذا القسم الثاني من أسباب النزول، وأنه يتسع لإيراد القصص المتعددة. فكل من يستحضر هذه النكتة، يستطيع أن يعالج اختلافات أسباب النزول بأدنى نظرة وتأمل.

تفصيل الإجمال في القصة:

ومن هذه الآثار المروية في كتب التفسير ما يحتوي على تفصيل لإجمال القصة التي ورد التعريض بأصلها في النظم القرآني، فيتناول المفسرون تفصيلها من الروايات الإسرائيلية، أو كتب السير والتاريخ، ويتعرضون لجميع أجزائها وتفاصيلها.

قسمان من هذا التفصيل:

وهنا مبحث آخر وهو أنه إذا كانت الآية تشتمل على تعريض ظاهر بالقصة أو الحادث، بحيث أن العارف باللغة يتوقف في ذلك الموضع ويلجأ إلى البحث عنه والإلمام به، فلا بد للمفسر من بيانه، وهو من مسؤولياته.

ولكن الذي لا يدخل في هذا القسم - مثلاً - هو ذكر «بقرة بني إسرائيل»، فالتعرض لبيان أنها ذكراً كانت أو أنثى، أو بيان كلب أصحاب الكهف هل كان

أبقع أو أحمر، كل ذلك من تكلف ما لا يعني، وقد كره الصحابة رضي الله عنهم ذلك وعدوّه إضاعة للوقت، واشتغالاً بما لا يعني المسلم.

أصلان لا بد من مراعاتها:

وهنا ينبغي أن يحفظ أصلان ويهتم بمراعاتها:

الأول: هو أن الأصل المرعي في هذا الباب أن تورد القصص والأحداث المسموعة المأثورة، كما حكيت من غير تصرف عقلي فيها.

موقف بعض قدماء المفسرين
من التعريضات في الآيات:

وقد كانت طائفة من قدماء المفسرين يضعون التعريضات الواردة في الآية نصب أعينهم، ويفترضون بعض المحامل المناسبة لها، ويصرحون بها في صورة الاحتمالات الممكنة، ويشتبه ذلك على المتأخرين فيقعون في شبهات وإشكالات.

وبما أن أساليب التوضيح لم تكن منقحة في ذلك العصر، لذلك كثيراً ما يشتبه التقرير بالاحتمال، بالتقرير بالجزم والقطع، فيعتقدون أن أحدهما مكان الآخر، وهذا أمر اجتهادي فيه مجال لإعمال العقل، وركض لجياد القيل والقال.

ومن حفظ هذه النكتة فإنه يستطيع أن يقول بالقول الفصل في كثير من مواضع الاختلاف بين المفسرين، وأن يعلم في كثير من مناظرات الصحابة رضي الله عنهم ومناقشاتهم، أنها ليست آراءهم القطعية المختمرة، بل إنما هي آراء علمية يتداولها المجتهدون فيما بينهم للبحث والنظر.

وعلى هذا المحمل يحمل المؤلف الفقير قول ابن عباس رضي الله عنهما في الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ «لا أجد في كتاب الله إلا المسح، لكنهم أبَوا إلا الغسل».

فالذي يفهمه الفقير من قوله هذا: أنه ليس ذهاباً منه إلى رأي صحة المسح على الأرجل والجزم بحمل الآية على ركنية المسح في الوضوء، كلا، إن ما تقرر

وثبت لدى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هوالغسل، ولكنه يقرر هنا إشكالاً، ويبدي احتمالاً، حتى يرى كيف يطبق فقهاء عصره بين هذين الأمرين المتعارضين، وما هو المنهج للدليل الذي يسلكونه.

أما الذين لا يعرفون محاورات السلف ومناهج مناقشاتهم ومناظراتهم، يظنون ذلك قولاً لابن عباس رضي الله عنهما ومذهباً له، حاشاه ثم حاشاه!.

والأصل الثاني: أن النقل عن بني إسرائيل والروايات المحكية عنهم دست في ديننا، وقد تقررت لذلك قاعدة مهمة، ألا وهي قوله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم». فلزم لأجل ذلك أمران:

الأول: أنه ما دام بيان التعريضات القرآنية وإشاراته إلى القصص والحوادث موجوداً في السنة المشرفة على صاحبها الصلاة والسلام، فلا ينبغي عندئذ معالجة النقل و الرواية عن أهل الكتاب، كمثل ما ثبت في السنة الصحيحة عند قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ أن ذلك محمول على ترك سليمان عليه السلام لقول «إن شاء الله» وأن المؤاخذة كانت على ذلك، فكيف يصح أن نذكر قصة صخر المارد من الروايات الإسرائيلية.

والأمر الثاني: هو أن «الضروري يتقدر بقدر الضرورة» فلا بد من ملاحظته، والقاء القول حسب مقتضى التعريض وضرورته حتى يمكن تصديقه بشهادة القرآن الكريم له، والكف عن الزيادة عليه.

تفسير القرآن بالقرآن:

وهنا نكتة دقيقة لا بد من معرفتها، وهي أن القرآن الكريم أحياناً يذكر القصة في موضع بالإجمال، وفي موضع آخر بالتفصيل كقوله تعالى: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ ثم قال: ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ فهذا القول الثاني هو القول الأول نفسه بنوع من التفصيل، فيتيسر بذلك تفسير هذا الإجمال، والتقدم من الإجمال نحو التفصيل، وكذلك جاءت قصة عيسى عليه السلام مجملة في سورة مريم في قوله تعالى:

﴿ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾، وجاءت مفصلة في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾.

فقد جاءت في هذه الآية البشارة التفصيلية، وفي تلك الآية البشارة الإجمالية، ومن هنا استنبط العبد الضعيف أن معنى الآية وتقديره: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل مخبراً بأني قد جئتكم﴾، وهذا داخل في حيز البشارة، وليس متعلقاً بمحذوف كما أشار إليه السيوطي حيث قال: «فلما بعثه الله قال: إني رسول الله إليكم بأني قد جئتكم»، والله أعلم.

شرح غريب القرآن:

من الأمور التي يشتمل عليها التفسير بالمأثور شرح غريب القرآن كذلك، ومبناه على تتبع لغة العرب أو على فهم سياق الآية ومعرفة مناسبة اللفظ بأجزاء الجملة التي وقع فيها.

وهنا للعقل مدخل وللإختلاف مجال، إذ أن الكلمة الواحدة تأتي في لغة العرب لمعانٍ شتى، وتختلف العقول والمدارك في تتبع استعمالات العرب، والتفطن إلى المناسبة مع السابق واللاحق.

ولذلك اختلفت أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في هذا الباب، وسلك كل منهم رأياً ومذهباً.

ولا بد للمفسر العادل أن ينظر إلى شرح الغريب نظرتين ويزنه وزناً علمياً مرتين. مرة في استعمالات العرب حتى يعرف أي وجه من وجوهها أقوى وأرجح. ومرة ثانية في مناسبة السابق واللاحق بعد إحكام مقدمات هذا العلم وتتبع موارد الاستعمال والفحص عن الآثار، حتى يعلم أي صورة من صورها أولى وأنسب.

وقد استنبط الفقير في هذا الباب استنباطات لطيفة جديدة، لا تخفى لطافتها ودقتها إلى على قليل الانصاف غليظ الطبع، فمثلاً، قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى...﴾ حملتُه على معنى تكافؤ القتلى وتساويهم، ومشاركتهم

بعضهم مع بعض في حكم واحد، حتى لا يضطر في تفسير قوله تعالى: ﴿الأنثى بالأنثى . . .﴾ إلى القول بالنسخ، ولا يحتاج إلى إيراد توجيهات، تضمحل وتسقط بأدنى نظرة وتفكير.

وكذلك حملت قوله تعالى: ﴿يسألـونك عن الأهلة﴾ عـلى يسألـونك عن الأشهر، أي أشهر الحج، فقال: ﴿هي مواقيت للناس والحج﴾.

وهكذا قوله عز وجل: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من ديارهم لأول الحشر﴾ فالمراد به: لأول جمع الجنود، لقوله تعالى: ﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ وقوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده﴾ إلخ.

وهذا أوفق بقصة بني النضير، وأبلغ وأقوى في بيان المنة من الله القدير.

الناسخ والمنسوخ:

كذلك مما تشتمل عليه روايات المفسرين بيان الناسخ والمنسوخ وينبغي أن تعرف هنا نكتتان:

النكتـة الأولى: هي أن الصحابـة والتـابعـين رضي الله عنهم لم يكـونـوا يستعملون «النسخ» بالمعنى الإصـطلاحي المعروف بـين الأصوليـين، بل كـانوا يريدون به المعنى اللغوي الذي هو عبارة عن «الإزالة» فمعنى النسخ إذن عندهم إزالة بعض أوصاف الآية المتقدمة بالآية المتأخرة، سواء كان بيانـاً لانتهاء مـدة العمل بها أو صرفاً للكلام عن المعنى المتبادر أو بيان إقحام قيـد من القيود، أو تخصيصاً للعموم، أو بيان الفارق بين المنصوص والمقيس عليـه ظاهـراً، وأمثال ذلك.

وهذا باب واسع وللعقل فيه مجال، وللاختلاف فيه مساغ، ولهـذا بلغت الآيات المنسوخة على هذا المعنى إلى خمس مائة آية.

النكتة الثانية: هي أن الأصل في النسخ بالمعنى المصطلح لدى الأصوليين معرفة تاريخ النزول، ولكنهم ربما يجعلون اجماع السلف الصالح أو اتفاق جمهور العلماء على شيء علامة للنسخ فيقولون به، وقد فعل ذلك كثير من الفقهاء ويمكن

أن يكون في مثل هذه المواضع ما تصدق عليه الآية غير ما ينطبق عليه الاجماع.

وبالجملة فإن الروايات والآثار التي تتحدث عن النسخ، وتنبىء عنه تحتوي على غمر عظيم، يصعب الوصول إلى عمقه وغوره.

آثار متعلقة بأمور أخرى:

ولأصحاب الحديث من المفسرين خارج هذه الأشياء أمور أخرى، يوردونها كذلك في تفاسيرهم، مثل: مناظرة الصحابة رضي الله عنهم في قضية من القضايا واستشهادهم بآية أو تمثيلهم لمسألة بآية من الآيات، أو تلاوة النبي ﷺ آية من الآيات الكريمة للاستشهاد، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل معناها، أو طريق التلفظ والقراءة لآية، أثرت عن النبي ﷺ أو أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

الفصل الثالث

في بقية لطائف هذا الباب

استنباط الأحكام وأقسامه العشرة:

ومما يبقى من لطائف هذا الباب وعلومه استنباط الأحكام الشرعية من الآيات القرآنية، وهو موضع واسع الأطراف، وللعقل مجال فسيح في الاطلاع على فحاوى الآيات، وإيماءاتها واقتضاءاتها والاختلاف فيها.

وقد ألقي في روُعي حصر أنواع هذه الاستنباطات في عشرة أقسام، والترتيب فيما بينها، وأرى أنها ميزان عادل لاختبار كثير من الأحكام المستنبطة ووزنها وزناً صحيحاً.

التوجيه:

فمن جملة هذه الأقسام العشرة التوجيه، وهو فن كثير الشعب والأطراف، ويعالجه الشُراح في شرح المتون، ويختبر به ذكاؤهم، ويتضح به تباين مراتبهم وتفاوت درجاتهم.

كلام الصحابة في التوجيه:

وقد تحدث الصحابة رضي الله عنهم ـ بالرغم من أن أصول التوجيه وضوابطه لم تكن منقحة واضحة في عصرهم ـ في توجيه الآيات القرآنية، وأكثروا منه.

حقيقة التوجيه:

وحقيقة التوجيه هي أنه إذا وقعت صعوبة في فهم كلام المؤلف ـ مثلاً ـ فيقف الشارح عند ذلك، وييسر هذه الصعوبة ويحل كل غموض، وبما أن عقول القراء

للكِتاب ومداركهم ليست في مرتبة واحدة، لذلك يختلف التوجيه للمبتدئين عن التوجيه للمنتهين، وكثير مما يصعب فهمه ويدق إدراكه يشعر به المنتهي، ويحتاج إلى حله، ويبقى المبتدىء في غفلة عنه، ولا يحس به، بل لا يستطيع أن يحيط به ويدركه حق إدراكه، وهنالك كثير من الكلام يستصعبه المبتدي ولا يحصل في ذهن المنتهي شيء من الصعوبة.

التوجيه في القرآن:

ولما كان القرآن الكريم قد أحاط بجميع العقول البشرية وأطراف المدارك الإنسانية، فإنه قد راعى حال جمهور القراء، وتحدث على قدر عقولهم وأذهانهم.

ففي آيات الجدل القرآني، يقوم التوجيه على تحرير مذاهب تلك الفرق التي تحدث عنها القرآن وتنقيح وجوه الإلزام.

وفي آيات الأحكام، ينبنى التوجيه على توضيح المسألة وذكر صورها وأمثلتها، وبيان فوائد القيود الواردة في الكلام من احتراز أو غير ذلك، ويكون التوجيه في باب التذكير بآلاء الله، بتصوير تلك النعم وتجسيدها، وبيان تفصيلاتها وجزئياتها.

وفي التذكير بأيام الله، ببيان ترتب بعض الأحداث والوقائع على بعض، وايفاء حق التعريض الذي يرد في أثناء سرد القصة والحادث.

وعمدة التوجه في التذكير بالموت وما بعده، تصوير أحداث ما بعد الموت ووصف الحالة التي يكون عليها الميت وما يلاقيه من نِعم أو أهوال.

أنواع أخرى من التوجيه:

ومن فنون التوجيه وأنواعه:

١ ـ تقريب ما يصعب فهمه ويبعد عن الذهن لعدم الأُلْف والعادة.

٢ ـ دفع التعارض بين دليلين أو تعريضين أو بين المعقول والمنقول.

٣ ـ التفريق بين الملتبسَين.

٤ ـ التطبيق بين المختلفَين.

٥ ـ بيان صدق الوعد الذي وردت به الآية.
٦ ـ بيان كيفية عمل النبي ﷺ وهيئته بما أمر به في القرآن العظيم.

وبالجملة فإن أمثلة التوجيه كثيرة في تفسير الصحابة رضي الله عنهم.

طريق التوجيه الصحيح:

ولا يمكن أن يُؤدي حق التوجيه للمواضع الصعبة، حتى يُبيِّن وجه الصعوبة وسببها بياناً شافياً، ثم يُفصل القول في حلها وتيسيرها، ثم يوزن ذلك القول وزناً عادلاً.

غلو المتكلمين:

وأما غلو المتكلمين فيما يتعلق بتأويل المتشابهات، وبيان حقيقة صفات الله عز وجل فليس هذا من مذهبي، بل مذهبي مذهب مالك والثوري وابن المبارك وسائر المتقدمين وهو إمرار المتشابهات على ظواهرها وترك الخوض في تأويلها.

أما النزاع والجدال في الأحكام والآراء المستنبطة منها وإحكام كل فريق لمذهبه، وطرحه لمذهب غيره، والتحايل لدفع الأدلة القرآنية، فكل ذلك لا يجوز عندي، وأخشى أن يكون هذا من قبيل التدارؤ بالقرآن.

ويجب على طالب علوم القرآن أن يبحث في مدلول الآية، ويتمسك بما يظهر من دِلالتها سواء خالف مذهبه أو وافقه.

ويلزم أن يفهم لغة القرآن الكريم عن طريق استعمالات العرب الأولين وتعبيراتهم، وأن يعتمد ـ كلياً ـ على آثار الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

تدافع في نحو القرآن:

وقد وقع خلل عجيب وتدافع في نحو القرآن الكريم، وهو أن طائفة من المفسرين اختاروا مذهب سيبويه، فيؤولون كل ما خالف مذهبه مهما كان التأويل بعيداً غير مستساغ، وهذا لا يصح عندي، بل يجب الأخذ بالأولى والأوفق بالسياق سواء وافق مذهب سيبويه أو مذهب الفرّاء.

إعراب ﴿المقيمين الصلاة﴾:

وقد قال عثمان رضي الله عنه في مثل قوله تعالى ﴿والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾: ستقيمها العرب بألسنتها.

وتحقيق هذه الكلمة عندي أن ما يخالف التراكيب العامة للكلام، ويرد في كلام أهل اللغة الذين يحتج بهم فهو من التراكيب المقبولة الصحيحة وكثيراً ما وقع للعرب الأولين أثناء خطبهم كلمات وتراكيب هي مخالفة للقواعد المعروفة في الفن، فهي من قبيل النادرة الاستعمال.

وبما أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب الأولين، فلا عجب إذا جاءت فيه الياء لحالة النصب مكان الواو لحالة الرفع، أو وقع المفرد مكان التثنية، أو ورد المؤنث مكان المذكر على طريق كلام العرب الأولين.

وعلى هذا، الذي تحقق عندي في قوله تعالى: ﴿والمقيمين الصلاة. . .﴾ أنها في حالة الرفع، وينبغي أن يُبين معناها في حالة الرفع والله أعلم.

علم المعاني والبيان:

أما المعاني والبيان فإنه علم حادث بعد انقضاء عهد الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، فما يكون منه مفهوماً في عرف جمهور العرب الأولين فهو على الرأس والعين، وأما الدقائق والأمور الفنية التي لا يدركها إلا المتعمقون في علم المعاني والبيان، فلا نسلم بأنها مطلوبة في فهم القرآن.

إشارات الصوفية:

وأما إشارات الصوفية واعتباراتهم، فإنها في حقيقة الأمر ليست من علم التفسير، بل الواقع أنه تمر حال استماع القرآن الكريم خواطر على قلب السالك وتنكشف له أشياء، تنشأ من تفكيره في النظم القرآني، أو الحالة التي يتصف بها، أو المعرفة التي يملكها، فهي أمور وجدانية ذوقية لا تفسير للآيات القرآنية ومثال ذلك، أن يسمع عاشق متيم قصة ليلى ومجنون، فيتذكر عشيقته، ويستعيد الذكريات التي كانت بينها وبينه.

الاعتبار والاستشهاد:

وهنا فائدة مهمة ينبغي الاطلاع عليها، وهي أن النبي ﷺ اهتم بفن الاعتبار والاستشهاد، وسلك منهجه وطريقه ليكون سنة لعلماء أمته وفتحاً لباب العلوم الوهبية التي خُصوا بها.

من أمثلة ذلك أنه ﷺ تمثل بقوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ في مسألة القدر، مع أن منطوق الآية هو أن كل من يعمل هذه الأعمال فنسجازيه بالجنة والنعيم المقيم، وكل من يعمل بضد هذه الأعمال، فسوف نعذبه ونصليه الجحيم، إلا أنه عن طريق الاعتبار يمكن أن يعلم به أن الله عز وجل خلق كل شخص لعمل وحالة، وهي الحالة التي تجري عليه وييسر لها من حيث يدري أو لا يدري، فمن هنا وبهذا الاعتبار كان لهذه الآية الكريمة ارتباط بقضية القدر كذلك.

كذلك قوله تعالى: ﴿ونفس ما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ فالمعنى المنطوق لهذه الآية الكريمة أن الله عز وجل عرف كل نفس بالبر والإثم، والخير والشر، ولكن هناك شبهاً بين خلق الصورة العلمية للبر والإثم، وبين خلق البر والإثم اجمالاً في وقت نفخ الروح، فيمكن عن طريق الاعتبار أن يستشهد بهذه الآية الكريمة في مسألة القدر أيضاً، والله أعلم.

الفصل الرابع

في غرائب القرآن الكريم

تنوع غرائب القرآن:

إن غرائب القرآن الكريم، أي السور والآيات التي ورد فيها فضل خاص أو لها ميزة خاصة، التي جاء ذكرها في الأحاديث الشريفة بمزيد من الإهتمام وبيان الفضل تنقسم أقساماً:

غرائب التذكير بآلاء الله تعالى:

فمن غرائب فن التذكير بآلاء الله تعالى تلك السور والآيات الكريمة التي تجمع جملة عظيمة من صفات الله تعالى، كآية الكرسي وسورة الإخلاص، وآخر سورة الحشر وأول سورة المؤمن.

غرائب التذكير بأيام الله:

ومن غرائب التذكير بأيام الله تعالى تلك الآيات الكريمة التي ترد فيها قصة نادرة، أو تذكر فيها قصة معلومة بجميع تفاصيلها وأجزائها، أو تأتي فيها قصة جليلة الفوائد تكون مظنة اعتبارات كثيرة، لذلك قال الرسول ﷺ في قصة موسى والخضر عليهما السلام: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

غرائب التذكير بالموت وما بعده:

ومن غرائب فن التذكير بالموت وما بعده، تلك الآيات الكريمة التي تجمع

أحوال القيامة مثلاً، ولذا ورد في الحديث «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رَأي عين، فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾ ﴿إذا السماء انفطرت﴾ ﴿إذا السماء انشقت﴾.

غرائب الأحكام:

ومن غرائب علم الأحكام تلك الآيات الكريمة التي تشتمل على بيان الحدود وتعيين الأوضاع الخاصة، كتعيين مائة جلدة في حد الزنا، وتعيين ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار لعدة المطلقة وتعيين حصص المواريث إلخ.

غرائب الجدل القرآني:

ومن غرائب الجدل القرآني، تلك الآيات الكريمة التي يرد فيها الجواب ـ على طريقة غريبة بليغة ـ يقطع الشُّبه ويدحض الباطل بأبلغ الوجوه وأقوى الأساليب، أو يبين حال فريق من تلك الفرق بمثال حسّيّ واضح، كقوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾. أو يرد التصريح بشناعة عبادة الأصنام والأوثان، وبيان الفارق العظيم بين الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك، بأمثلة عجيبة مؤثرة، أو يذكر حبْط الأعمال لأصحاب الرياء وطالبي السمعة بأبلغ الوجوه البيانية.

غرائب أخرى:

وليست الغرائب القرآنية مقصورة على هذه الأبواب المذكورة، بل قد تكون الغرائب أحياناً من الوجهة البلاغية العالية، وجمال الأسلوب وأناقته مثل سورة الرحمن، ولذلك سميت في الحديث الشريف بعروس القرآن، وأحياناً أخرى من جهة التصوير للشقي والسعيد وتجسيد حالتيهما.

الفصل الخامس

في ظهر القرآن وبطنه

ورد في الحديث الشريف «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن، ولكل حد مطلع».

فينبغي أن يعلم أن ظهر هذه العلوم الخمسة هو ما يسمى بمدلول الكلام ومنطوقه. أما بطنه في باب التذكير بآلاء الله: فهو التفكير والتأمل في آلاء الله ونعمه وآيات قدرته، ومراقبته عز شأنه، وبطن التذكير بأيام الله تعالى: معرفة مناط المدح والذم، والثواب والعذاب من تلك القصص التي ترد فيه والإتعاظ بها وأخذ الدروس والعبر منها.

وبطن التذكير بالجنة والنار: ظهور الخوف والرجاء، واستحضارهما وتصورهما حتى كأنها رأي العين.

وبطن آيات الأحكام: استنباط الأحكام الخفية الدقيقة بالفحاوى والإيماءات.

وبطن الجدل القرآني مع الفِرق الضالة الباطلة: الإطلاع على حقيقة تلك القبائح والفظائع التي وصفوا بها، وإلحاق نظائرها وأشباهها بها.

وأما مطلع الظهر: فهو معرفة لغة الرب والآثار المتعلقة بعلم التفسير، ويراد بمطلع البطن: حدة الذهن ولطفه واستقامة الفهم وسداده، مع نور الباطن وسكينة القلب، والله أعلم.

الفصل السادس

في بعض العلوم الوهبية

من العلوم الوهبية في علم التفسير التي سبقت الإشارة إليها **تأويل قصص الأنبياء** عليهم الصلوات والتسليمات، وقد ألف الفقير رسالة في هذا الموضوع أسماها «تأويل الأحاديث»[1].

والمراد بالتأويل هنا، أن كل قصة وقعت وورد ذكرها في القرآن الكريم، كان لها مبدأ وأساس من صلاحية الرسول واستعداده، واستعداد قومه حسب تدبير الله عز وجل الذي أراده سبحانه في حينه، ولعله وقعت الإشارة في قوله تعالى: ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ إلى هذا المعنى.

ومنها **تنقيح العلوم الخمسة** التي هي منطوق القرآن العظيم وقد جاء ذكرها مفصلاً في أول هذا الكتاب فليُرجع إليه.

ومنها **ترجمة القرآن الكريم** باللغة الفارسية بوجه قريب من النص العربي في مقدار الكلمات والعبارات، والتخصيص والتعميم وغير ذلك، وسميت هذه الترجمة بـ«فتح الرحمن في ترجمة القرآن» وإن كنت لم ألتزم هذا الشرط في بعض المواضع خوفاً من عدم فهم القارىء بدون تفصيل وتوضيح.

---

(١) هذا التأويل الذي ذكره المؤلف لقصص الأنبياء يبدو أنه راعى فيه إثبات المعجزات والتدليل عليها للفلاسفة والعقلانيين ولكن منهجه فيه لا يتفق عليه كلياً، وكان الأولى أن يسلك المنهج القرآني المبين، والله أعلم.

ومنها **علم خواص القرآن الكريم**، وقد تكلمت طائفة من المتقدمين في خواص القرآن من ناحيتين: إحداهما ما يشبه الدعاء، والثانية ما يشبه السحر، أعوذ بالله منه، ولكن الله تعالى فتح على الفقير باباً وراء ما نقل من خواص القرآن وألقى في حِجري الأسماء الحسنى والآيات العظمى والأدعية المباركة مرة واحدة وقال إنها عطاءنا للتصريف [١]، إلا أن كل آية واسم ودعاء مشروط بشروط لا تضبطها قاعدة من القواعد، بل قاعدتها انتظار عالم الغيب، كما يكون في حالة الاستخارة، حتى ينظر بأي آية أو اسم يشار عليه من عالم الغيب، ثم يتلو الآية أو الإسم على طريق من الطرائق المعلومة لدى أهل هذا الفن[٢].

هذا ما قصدت إيراده في هذه الرسالة.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) هذه العبارة من المؤلف كذلك موهمة، وهي أشياء ذوقية وجدانية، ويختص الله برحمته من يشاء، ولكن نحن مكلفون بالأدلة الصريحة، وليس لنا حجة في ذوق أو كشف فلان.

(٢) هذه كلها أمور حادثة، قد تكون من المباحات إذا لم تصادم النصوص، وقواعد التلاوة والترتيل، وإلا فهي مرفوضة وليس انتظار عالم الغيب ميزاناً، يزن به كل أحد، وطريقة صلاة الاستخارة معروفة، وليس فيها ما أحدثه الناس بعد من الأشياء، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا الرسول المعصوم ﷺ والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

فهرس الموضوعات

٣٠ / ٣١ / ٨ / ٠٧